الدور السياسي لبعض الخلفاء العباسيين
في مصر المملوكية

إعداد الدكتورة

سلطانه بنت ملاح بن مويشي الرويلي

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد

كلية العلوم الإدارية والإنسانية

جامعة الجوف

مقدمة:

١- المماليك وإحياء الخلافة العباسية في القاهرة:

في الحقيقة أنه منذ بداية حكم المماليك وهم لا يشعرون أن لهم صفة شرعية في حكم البلاد، حتى وإن تمتعوا بالقوة والسطوة والقدرة على فرض أنفسهم كحكام، فهذه شجرة الدر وجدت المعارضة في الداخل والخارج لكونها امرأة ، ثم لأصلها فقد كانت جارية أول أمرها ثم لاعتراض أبناء البيت الأيوبي على حكمها، ولذلك نلاحظ كما سبق القول أنها حاولت التغلب على كل ذلك بالألقاب التي اتخذتها لنفسها، ثم أنها حاولت إضفاء الصفة الشرعية على حكمها بطلب اعتراف الخلافة العباسية بها إلا أنها فشلت في ذلك.

وحتى عندما حاول المماليك تخطى ذلك المأزق بتولية عز الدين أيبك الحكم، لم يستطيعوا أن يتخلصوا من عار (الرق) الذي لازمهم وكان من أهم أسباب رفض

حكمهم من المصريين في الداخل[١]ومن القوى الخارجية وعلى رأسها أبناء البيت الأيوبي الذين حاولوا استرجاع مصر إلى حوزة الأيوبيين بالقوة.

ولذلك كان حرص المماليك على إضفاء الصفة الشرعية على حكمهم منذ البداية وذلك عن طريق إرسال الرسل إلى الخلافة العباسية في بغداد وطلب الخلع منها والتقليد كطريقة لاعتراف الخلافة العباسية بالدولة المملوكية في مصر، فنجد عزالدين أيبك يراسل الخليفة العباسي المستعصم يطلب منه التقليد والخلع السلطانية أسوة بمن سبقه من ملوك مصر[١].

ولم يكتف عز الدين أيبك بذلك بل أنه أعلن وضع البلاد تحت سلطة الخلافة العباسية صاحبة السلطان القديم، وأنه يحكم باعتباره نائباً عن الخليفة المستعصم [٢] فكان ذلك إن جاز لنا القول ظهور وإحياء للخلافة العباسية في القاهرة، وإن لم يكن

---

[١] ما أن تولي عز الدين أيبك عرش السلطنة حتى قامت في مصر ثورة عارمة من المصريين الرافضين لحكم المماليك، تلك الثورة التي عرفت في كتب التاريخ باسم ثورة العرب ، لأن من تزعمها كانوا من العرب الذين سكنوا مصر منذ الفتح وتحولوا تدريجياً إلى مزارعين مستقرين، خاصة في أقاليم العرب والشرقية وأطلق عليهم (العرب المزارعة) ويبدو أن هؤلاء العرب احتقروا المماليك، ورفضوا أن يخضعوا لحكمهم بسبب أصلهم غير الحر، واعتبروا أنهم أحق بالمملكة منهم،وقد أتخذ رفضهم شكل ثورة ملحة خاصة بعد السياسات الاقتصادية المتشددة التي مارسها المماليك، حيث تعسفوا في تحديد أثمان المنتجات الزراعية ، وتلاعبوا بأسعارها مما أنعكس سلباً على أوضاع المزارعين الاقتصادية، ويبدو أن الحركة الثورية لم تقتصر على المزارعين العرب وحدهم ، بل انتشرت بين العامة الذين رفضوا سلطان قد جرى عليه الرق، فكانوا يهاجمون أيبك ويوجهون له النقد، ويسمعونه ما يكره ، من ذلك قولهم "لا نريد إلا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة" .ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة بدون تاريخ، ج٧، ص١٣، المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٨٧م،، ص ٣٨٧، النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق محمد ضياء الدين الريس، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٣م، ج٢٩، ، ص ٢٩، ص ٤٣١.

[١]المنصوري ، التحفه المملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبدالحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية ، ط١، ١٩٨٧، ص ، ص ٣١، العيني ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١ ،١٩٨٩م ص ٢٦،٢٧، ،ج ١، ص ١٤٥ ، سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام ، دار النهضة العربية بيروت ،١٩٦٨م، ص ٢١.

[٢] ولعل الدافع إلى ذلك هو محاولة تخلص أيبك من الموقف المضطرب في الداخل بثورة المصرين عليه ، والأكثر التخلص من تهديد أفراد البيت الأيوبي في بلاد الشام له ودحض حجتهم في أن أيبك ليس له صفة شرعية في حكم البلاد، حتى أنهم جهزوا حملة للقدوم إلى مصر واستعادتها ، أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر،مطبوعات المطبعة الحسينية القاهرة ١٣٢٥هـ ج ٣، ص ٨١، ابن تغري بردي: النجوم ، ج ٧، ص ٨٢، المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك،تحقيق محمد مصطفي زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٣٤م، ج ١قسم ١ ص ٢٢.

بنفس الصورة أو الطريقة التي حدثت على يد السلطان بيبرس بعد توليه سلطة مصر[٣] كما سنرى بالتفصيل في الصفحات التالية.

٢-الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م)وإحياء الخلافة العباسية بالقاهرة.

أحسن الملك الظاهر بيبرس أنه بحاجة إلى دعم أدبي يكسب حكمه صفة شرعية، وقد أتى ذلك الشعور في الوقت الذي شعر فيه العالم الإسلامي بفراغ كبير في منصب القيادة الروحية والدينية بعد سقوط بغداد في أيدي المغول سنة ٦٥٨هـ /١٢٦٠م وقتل الخليفة العباسي المستعصم ([١]) كما أن هذا الحدث قد أوجد موقفاً غير طبيعياً منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بعدم وجود منصب الخلافة ، كما كان من المتعذر بعد مقتل الخليفة العباسي المستعصم، أن يخلفه أحد من أبناء بيته في بغداد نظراً لأن هذه المدينة أصبحت قاعدة للحكم المغولي، والحقيقة أن محاولة الظاهر بيبرس لإحياء

---

[٣] والحقيقة أن محاولات بيبرس لإحياء الخلافة العباسية تظهر أهمية الحصول على اعتراف الخليفة الزعيم الروحي والديني لعامة المسلمين وخاصتهم، بأي دولة موجودة على الساحة، ذلك أن الأيوبيين بزعامة أيبك كانوا قد حصلوا على اعتراف أمراء وملوك البيت الأيوبي في بلاد الشام، بموجب الاتفاقية التي عقدت بين الطرفين سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م، برعاية الخليفة العباسي المستعصم ، الذي أراد توحيد العالم الإسلامي أمام الخطر الجديد الذي ظهر وبدأ يهدد العالم الإسلامي كله وهو خطر المغول، ويبدو أن ما تردد حول همجية المغول وما يفعلونه بالبلاد التي ينزلون بها، كان من الأسباب التي كانت وراء اتفاق المماليك والأيوبيين وتوقيع معاهدة كان أهم بنودها اعتراف الأيوبيين بحكم المماليك على مصر وبلاد الشام حتى نهر الأردن، على أن يكون للأيوبيين بقية بلاد الشام بما فيها بيت المقدس ونابلس والساحل الفلسطيني ، أنظر تفاصيل ذلك.النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق محمد ضياء الدين الريس، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٣، ، ج ٢٩، ص ٣٨٢و أبن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة القاهرة ١٩٨٠م ، قسم ١، ص ٢٩٢، في حين أن العيني يذكر ذلك في أحداث سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م، العيني: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، تحقيق فهيم شلتوت، وراجعه محمد مصطفي زيادة، القاهرة ١٩٦٧م، ج ١، ص ٨٠.

[١]-حاصرت الجيوش المغولية بغداد عاصمة الخلافة العباسية ثم دخلتها عنوة في شهر صفر عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ودمرتها وكان الخلفية المستعصم قد خرج منها وسلم نفسه للزعيم المغولي دون قيد أو شرط بعد أن وعده هولاكو بالأمان إلا أنه غدر به وقتله وابنيه أبي العباس أحمد وأبا الفضائل عبدالرحمن وأسر ابنه الأصغر مبارك وأخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم ثم استسلمت باقي مدن العراق كالكوفة وواسط والموصل وبسقوط بغداد ومقتل الخليفة المستعصم انتهت الخلافة العباسية ، أبن العبري: تاريخ الزمان ،نقله إلي العربية الأب إسحاق الرملة،وقدم له الأب جان موريس فييه، بيروت ١٩٨٦م.، ص ٣٠٦- ٣١٠.

الخلافة العباسية في القاهرة لم تكن الأولى من نوعها، فقد حاول بعض حكام الإمارات الإسلامية(٢).

وقد شاءت الظروف أن يكون تنفيذ المشروع على يد الظاهر بيبرس، الذي شعر بشدة تأثير المسلمين بسقوط بغداد وخلو منصب الخلافة من خليفة يكون له المقام الروحي المرموق، وأصبح الوضع يتطلب أن ينهض زعيم إسلامي طموح ، يعمل على إعادة إحياء الخلافة العباسية لتؤدي دورها القيادي الروحي في العالم الإسلامي(١).

كما أحب بيبرس أن يكون هو الزعيم الطموح الذي يعيد الحياة إلى هذه الخلافة ، كما أنه أراد تحقيق عدة أهداف منها:

. أن يكون له وللسلطنة المملوكية سنداً روحي يجعلها مهيبة الجانب.

٢- لم يكن السلطان الظاهر بيبرس أول من فكر في إقامة الخلافة العباسية بمصر، فقد سبقه إلى ذلك الأمير أحمد بن طولون عندما رحب الخليفة المعتمد أثناء الخلاف الذي حدث بين المعتمد وأخيه الموفق طلحه عام ٢٦٩هـ/ ٨٨٢م غير أن مشروع أحمد بن طولون لم يتحقق نتيجة قبض الموفق على المعتمد والحجر عليه ببغداد، ونجدد أمل حكام مصر في نقل الخلافة إلى مصر زمن محمد بن طغج الأخشيد عندما تأزم الموقف بين المتقى وبين الحمدانيين والأتراك عام ٣٣٣هـ/٩٤٤م كذلك رحب السلطان قطز بالأمير أبي العباس أحمد وهو أحد أمراء البيت العباسي الفارين من وجه التتار عقب موقعة عين جالوت وأشار على أصحابه بأنه، إذا رجعنا إلى مصر أنقذه إلينا لتعيده إن شاء الله. كما أنه يقال أن الملك الناصر يوسف صاحب دمشق رأى هو الآخر ضرورة إحياء الخلافة العباسية بدمشق حتى يتسنى له بسط سلطانه على بقية المماليك الإسلامية. للمزيد انظر. ابن الأثير ، الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت لبنان ١٩٦٨م ، ج٥ ص٢٥٨،السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٨م،ج٢، ص٤٧٩. حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشريف، العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي القاهرة ١٩٨٢م ص٤٢٢، ٤٤٠،

(١) كما أنه كان من الثابت في ذلك الوقت أنه لم يعد في العالم الإسلامي تجمع أو كيان قائم إلا دولة المماليك ، فكان من الطبيعي أن تكون هي صاحبة ذلك المشروع ، فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، دار النهضة العربية ١٩٨٠، ص ٣٠٥، خاشع المعاضيدي وسوادي محمد وعبدالقادر نوري: الوطن العربي والغزو الصليبي، مطابع جامعة الموصل، ص ٢٢٤، السيد الباز العريني: المغول ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٦م، ص ٢٦٠.
ص ٢٢٤، السيد الباز العريني: المغول ، دار النهضة العربية ، ص ٢٦٠.

. أراد أن يحيط عرشه بسياج من الحماية الروحية يقيه خطر[٢]الطامعين في مصر من أمراء الشام، ويبعد عنه كيد منافسيه من أمراء المماليك في مصر الذين اعتادوا الوصول إلى الحكم عن طريق تدبير المؤامرات[٣].

. أراد أن يظهر أمام العالم الإسلامي بمظهر الحامي للخلافة وأن تنظر إليه الشعوب الإسلامية نظرة حامي الإسلام[٤].

. أن إقامة خليفة سني المذهب من شأنه أن يقضى على هذه المحاولات التي بذلها، ويبذلها الشيعة في مصر لإعادة إحياء الخلافة الفاطمية(٣).

. أن وجود الخليفة العباسي في مصر يضفي على سلطان المماليك مكانة أعلى من مكانة الأمراء والملوك في البلاد الإسلامية الأخرى بالإضافة إلى أن هؤلاء ليمكنهم التلقيب بلقب "سلطان" لأن هذا اللقب منح لبيبرس من الخليفة الذي يعتبر مصدر السلطات في العالم الإسلامي كله(٤).

. لقد هدف بيبرس ، بالإضافة إلى الدعم الديني ، إلى التوسع السياسي ببسط سيطرته ، بمساعدة الخليفة وتأييده على البلدان المجاورة لمصر، خاصة بلاد الحجاز، ليقوى بذلك مقام السلطنة المملوكية الأدبي في نظر المسلمين، ويرفع من مكانة حكامها باعتبارهم حماة الحرمين الشريفين ، وتأمين حدود مصر الشرقية ومدها حتى نهر الفرات(٥).

---

(٢) فؤاد الصياد: المغول في التاريخ ، ص ٣٠٧، سعيد عبدالفتاح عاشور: العصر المماليكي ، ص ٣٤٢.

(٣)المعاضيدي: الوطن العربي والغزو الصليبي ، ص ٢٢٦.

[٤]وليم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر ، ترجمة محمود عابدين، سليم حسن ، نشر مكتبة مدبولي ١٩٩٥م، ، ص ٥١.

[٣]-محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس بيروت (د-ت)، ص ٩٨.

[٤]-أحمد مختار العبادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة بيروت ١٩٦٩م، ص ٦٢ ، جورج يانج: تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل ، ترجمة علي أحمد شكري، دار النهضة بيروت (د-ت)، ص ٥٢.

[٥]-حامد زيان غانم: صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة المماليك نشر الدار الأهلية للنشر والتوزيع(د-ت)، ص ٢٢.

وبدأ بيبرس في عام ٦٥٩هـ /١٢٦١ م ، باتخاذ إجراءات التنفيذ ، فأستدعى الأمير أبا العباس أحمد الذي كان قطز قد بايعه في دمشق إلى القاهرة، ([٦])، ووصل في ذلك الوقت أمير عباسي آخر هو أبو القاسم أحمد فاراً من وجه المغول([٧]).فوجد بيبرس فرصته الذهبية التي كان يتمناها ، فأمر بإحضار ذلك الأمير وعظمه وبالغ في احترامه([٨]).

واستعدت القاهرة لاستقبال الأمير العباسي، الذي وصل إليها في الثامن من شهر رجب، استقبالا حافلاً، فخرج بيبرس وأعيان الدولة والقضاة من قلعة الجبل (مركز الحكم والسلطنة في القاهرة) لاستقباله ، ولما التقيا ترجل الظاهر بيبرس إجلالاً لمقامه ثم تقدم وعانقه([٩]).

وسار الركب في شوارع القاهرة والخليفة يرتدي السواد شعار بني العباس،حتى صعد إلى قلعة الجبل، وفي صباح يوم الاثنين الثالث عشر من شهر رجب، عقد الظاهر بيبرس مجلساً عاماً بالديوان الكبير في القلعة حضره العلماء والقضاة وجميع رجال الدولة ، وكبار التجار ووجوه الناس، ويشهد العربان الذين قدموا معه أمام الجميع بصحة نسبه، وأقر الفقهاء والقضاة ذلك وشهدوا بصحة نسبه[١]وبايعوه بالخلافة ثم تبعه الظاهر فبايعه على العمل بكتاب الله وسنة نبيه ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله ، وأخذ الأموال بحقها وصرفها في مستحقها، وتابعه

---

[٦]-أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر،ج ٣، ص ٣٢١، المقريزي: السلوك،ج١ ق١ ص ٤٤٨.

[٧]-وكان معه جماعة من الأعراب من بني خفاجة شهدوا على صحة نسبه. أبوشامة: الذيل على الروضتين،بيروت ، دار الجيل،١٩٧٤م. ص ٢١٣.

٨- المقريزي: السلوك، ج١،ق١، ص ٤٤٩.

[٩]-أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر، طبع القسطنطينية،١٢٨٦هـ، ، ج٤، ص ١٧، أبن كثير: البداية والنهاية ،مكتبة المعارف بيروت ١٩٨٣م، ج ١٣، ص ٢٢١.

[١] على الرغم من هذه المظاهر التي صاحبت ، إعادة إحياء الخلافة العباسية ، فقد وجد من المؤرخين من شكك في صحة نسب الخليفة الجديد ومنهم أبو الفدا، حيث ذكر تلك الأحداث معبراً عن ذلك الخليفة بقوله: "ذكر مبايعة شخص بالخلافة " أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ص ١٨،١٩.

في ذلك الأمراء وكبار رجال الدولة[٢].ثم الناس على مختلف فئاتهم ، وتلقب أبو القاسم أحمد بلقب "الخليفة المستنصر بالله"[٣].

وكتب بيبرس إلى سائر الملوك والأمراء والنواب خارج مصر لكي يأخذوا البيعة للخليفة الجديد وأمرهم بالدعاء له على المنابر قبله وأن تنقش السكة باسميهما[٤].

وقام الخليفة العباسي بدوره، فقلد الظاهر بيبرس البلاد الإسلامية وما يضاف إليها، وما سيفتتحه الله على يديه من بلاد الكفار وألبسه خلعة السلطة([١٠]).وبذلك أصبح الملك الظاهر بيبرس سلطاناً شرعياً فأمن علي حكمه من منافسة أعداؤه، ويبدو أن بيبرس لم يقتنع بكل ما جرى من مراسم التقليد، فأراد تأكيد ذلك مرة ثانية أمام الأمراء ، وعقد اجتماع آخر تلا فيه صاحب ديوان الإنشاء، تفويض الخليفة العباسي للسلطان الظاهر بيبرس([١١]).

ورغم حصول السلطان الظاهر بيبرس على ما أراد من تدعيم ديني ومعنوي لسلطته ، إلا أنه أوجد في الوقت نفسه شريكاً في الملك سوف يكون له أثر سلبي على منصب السلطنة إذا ما دب خلاف بين الخليفة والسلطان، خاصة وأنه بطبيعة الحال سوف يساند الخليفة في موقفه الرأي العام، ولذلك رأي الظاهر بيبرس نتيجة لإدراكه

---

[٢]أبن عبدالظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبدالعزيز الخويطر، طبع الرياض، ط ٢، ١٩٧٦م، ص ٩٩،١٠٠، حياة ناصر الحجي: العلاقة بين دولة المماليك ودولة مغول القبجاق في الفترة بين (٦٥٨-٧٤١هـ /١٢٦٠-١٣٤١م) ، حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الحولية الثانية ١٩٨١، ص ١٤،١٥.

[٣] أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ٢١٢- ٢١٣،ابن تغري بردي، مصدر سابق، ج٧ ص ١٠٩- ١١٠، المنصوري: التحفة الملوكية في الدولة التركية، ص ٤٧، ابن عبدالظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص ١٠٠ ، علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة، ١٩٦٧م،ص٥ .

[٤] المقريزي : السلوك، ط١ق١، ص ٤٥٠،٤٥١.

[١٠]-وكانت خلعة السلطنة عبارة عن عمامة سوداء مذهبة ومزركشة ، وجبة حرير سوداء ودراعة (جبة مشقوقة من الإمام ولا تكون إلا من صوف) بنفسجية اللون، وطوق من ذهب وقيد من ذهب، وسيف، ولواءان ينشران على رأسه وسهمان كبيران وترس، ابن عبدالظاهر: الروض الزاهر، ص ١٠٢، النويري: نهاية الأرب، ج ٣٠ – ٣٤، أبن منظور ، لسان العرب، طبعة مصورة عن طبعة بولاق معها تصويبات وفهارس، المؤسسة المصرية للنشر ٢٠٠٢، ج ٢، ص ١٣٦١.

[١١]-النويري: نهاية الأرب ، ج٣٠، ص ٢٣٥، ابن أبي الفضائل ،النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد،بلوشيه باريس ١٩١١، ص ١٠٥.

هذه الحقيقة ، وبعد أن صبغ حكمه بالصبغة الشرعية كما أراد ، التخلص من الخليفة العباس المستنصر([١٢]).

ولذلك نراه يجهز حملة ويرسل على رأسها الخليفة لاستعادة بغداد من أيدي التتار، ولما خاف بيبرس أن ينتصر الخليفة فينجح في مهمته([١٣])وخوفاً من أن يتهم بالتراجع ، فقد زود الخليفة بعدد ضئيل من الفرسان([١٤]).

وبالفعل فقد حدث ما أراده بيبرس حيث لم ينجح الخليفة في مهمته بل إنه قتل ولم يعثر له على أثر، ولم علم بيبرس بمقتل الخليفة المستنصر تأسف لذلك([١٥]).

إلا أن طريق الخلافة التي فتحها بيبرس وتوغل فيها ظلت تخيم على تفكيره، ولم يتمكن من التخلص منها، وكان لابد أن يمضي فيها حتى النهاية باعتباره أصبح ملزماً أدبياً أمام الرأي العام الإسلامي، ولذلك فإنه لم يجد مفراً من استدعاء أخو الخليفة السابق "أبو العباس أحمد" وبايعه بالخلافة ، وكما حصل الخليفة المستنصر ، فقد جرت احتفالات التنصيب في القاهرة في شهر محرم عام ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م وتلقب "بالحاكم بأمر الله" وفي المقابل حصل بيبرس منه على تقليد بالسلطنة ولقب "قيم أمير المؤمنين"[(١)].

---

[١٢]-على إبراهيم حسن : تاريخ المماليك البحرية، ص ٥٨ ، سعيد عبدالفتاح عاشور ، العصر المماليكي في مصر والشام ، ص ١٧٢.

[١٣]-ولقد كان وارداً أن ينجح الخليفة في حملته هذه إذ أن هولاكو زعيم المغول ، كان قد غادر بلاد الشام والعراق متجهاً إلى العاصمة المغولية قراقورم وقد سحب معه معظم جيشه ، بسبب وفاة الخان الكبير منكو وبروز بوادر صراع على السلطة بين أخوي هولاكو قوبيلاي وأريق بوا، فأراد أن ينافسهما على الزعامة المغولية، ولذلك لم يكن في المنطقة سوى أعداد قليلة من التتار مما قد يتيح معها الفرصة لاستعادة بغداد خاصة بعد انتصار الجيش الإسلامي على المغول في عين جالوت، السيد الباز العريني: المغول ، ص ٧٢، فؤاد عبدالمعطي الصياد، الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين -- أسرة هولاكو خان مركز الوثائق ، الكويت ١٩٨٧م، ص ٢٢.

[١٤]-المنصوري: التحفة الملوكية ، ص ٥١، أبن كثير: البداية ،ج ١٣، ص ٢٣٣.

[١٥]-أبن كثير: البداية ، ج ١٣، ص ٢٣٢ ، أبن أبي الفضائل: النهج السديد، ص ١٠٥.

[(١)] المقريزي: السلوك، ج١ق١، ص ٤٧٩، المنصوري: المصدر السابق، ص ٥١، أبن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ١٥٩.

وهكذا أعاد بيبرس إحياء الخلافة العباسية في القاهرة للمرة الثانية، غير أنه لم يفكر في إرساله لاستعادة بغداد كما فعل مع سلفه[٢].إلا أنه قيد صلاحيات الخليفة ، ولم يترك له فرصة للظهور أو تأكيد نفوذه على حساب السلطنة المملوكية، فاقتصرت صلاحياته على مجرد ذكر أسمه في الخطبة، وسك أسمه على العملة[٣].

وأقام الخليفة بالقلعة بالقاهرة "عند حريمه وخدمه وغلمانه" وليكون تحت أنظار السلطان الظاهر بيبرس باستمرار، ولا يستطيع الخروج عند الحدود المرسومة له من قبل السلطنة المملوكية([١٦]).

٣-علاقة أبو العباس أحمد بن الحسن الحاكم بأمر الله (الأول) والسلطان الظاهر بيبرس:

أبُعد الخليفة عن أي عمل يباشر من أعمال الدولة طوال عهد السلطان بيبرس الذي حال دون نشر نفوذه على الحكام المسلمين ولم يأخذ منه تفويضاً بعهد السلطنة لابنه الملك السعيد بركة ([١٧]) ، وإنما منح هذا التفويض بنفسه وأمر بقراءته على القضاة والفقهاء سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م وهكذا استبد الظاهر بيبرس بالسلطان والنفوذ دون الخليفة أبو العباس أحمد بن الحسن الحاكم بأمر الله (الأول) في القاهرة وأصبح لا يعني بذكر اسمه في

---

[٢] تذكر بعض الكتب أن السبب وراء إرسال الظاهر بيبرس للخليفة المستنصر إلى بغداد يرجع إلى رغبته في استعادة مركز الخلافة العباسية وأنه كان ينوي جعل بغداد مقر إقامة الخليفة كما كان، إلا أنه عدل عن هذا الرأي خوفاً من إنفراد الخليفة بالأمور فيها ، وهو بعيد عن عين السلطان بيبرس ففضل أن يكون مقام الخليفة في القاهرة تحت عين السلطان وسمعه، وحتى يكون الخليفة بعيداً عن خطر المغول، حكمت فرحات وآخرون : مختصر التاريخ الإسلامي ، ص ٥٢.

[٣]سعيد عبدالفتاح عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، ص ٦٩٥، العبادي: قيام دولة المماليك، ص ١٨٩.

١٦- السيوطي: حسن المحاضرة ، ج٢، ص ٧٢، ابن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج ١، قسم ١، ص ٣٢٢.

[١٧] . الملك السعيد : محمد بركة بن الملك ركن الدين بيبرس البندقداري ألصالحي ألنجمي ، لما مات الملك الظاهر بدمشق ، كتب الأمير بدر الدين بيليك الخازندار إلى الملك السعيد وهو بقلعة الجبل كتاباً بموت أبيه ، فأظهر الملك السعيد فرحاً كبيراً وكان ذلك عام ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م واستمر في الحكم إلى أن خلع من الحكم عام ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م انظر المقريزي ، السلوك ح١قسم٢ ص ٦٤١ – ٦٤٢ .

الخطبة ونقشه على السكة ([١٨]) . ويتبين ذلك مما جاء في التفويض الذي أعطاه السلطان بيبرس لولي عهده الملك السعيد بركة دون أذن الخليفة ، وقد جاء فيه " بأن يكتب هذا التقليد لولدنا السعيد ناصر الدين " بركة خاقان محمد " بولاية العهد الشريف على قرب البلاد وبعدها ، وغورها ونجدها ، وقلاعها وثغورها .. وما ينسب للدولة القاهرة من يمن وحجاز ومصر وغرب وسواحل وشام بعد شام ، وما يتداخل ذلك من قفار ومن بيد في سائر هذه الجهات . ولا تدبير ملك كلي إلا بنا أبو بولدنا يعمل . ولا دست سلطنة إلا بأحدنا يتضح منه الإشراف .. ولا منبر خطيب إلا باسمنا يميس ولا وجه درهم ولا دينار إلا بنا يُشرق .. فليتقلد الولد ما قلدناه من أمور العباد وليشركنا فيما نباشره من مصالح الثغور والقلاع والبلاد " ([١٩]) .

على أن الملك السعيد سرعان ما نقض سياسة أبية إزاء الخليفة ، حين عمل الأمراء على تقويض سلطته وحاصروه بالقلعة ، فاستدعي الخليفة الحاكم بأمر الله وطلب منه الوقوف على رغبة الأمراء ، ولما أخبره بأنهم يرغبون في عزله وإعطائه ولاية الكرك ([٢٠]) ، أذعن لذلك يقول المقريزي في ذلك " الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد ، يقول : يا أمراء إيش غرضكم " فقالوا : يخلع الملك السعيد نفسه من الملك ونعطيه الكرك فأذعن السعيد لذلك ، وحلف له الأمراء ، وحضر الخليفة والقضاة الأعيان وأنزل الملك السعيد ، وأشهد عليه أنه

[١٨]. يقول السيوطي " ثم اسقط من سكة النقود ، وأبقاه على المنابر " انظر حسن المحاضرة ، ج٢ ص ٥٤ . وهذا يخالف ما ورد في التفويض الذي منحه السلطان لابنه الملك السعيد ، إذ جاء فيه " لا منبر خطيب إلا باسمنا يميس ، ولا وجه درهم ولا دينار إلا بنا يشرق "

[١٩]. القلقشندى ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٧٣م. ، ج١٠ ص ١٦٤ – ١٦٥ .

[٢٠]. ولاية الكرك ، تعرف بكرك الشويك ، م من القبلة عقبة الصوان ، ومن الشرق بلاد البلقا ، ومن الشمال بحيرة سدوم ، دهي المعروفة بالمنتنة – البحر الميت – وبحيرة لوط ، ومن الغرب تيه ابني إسرائيل – سيناء – وبها عدة مدن تصل إلى أربع وعشرون مدينة وقرية عامرة بالأسواق والمساجد . انظر محمد عدنان البخيت ، مملكة الكرك في العهد المملوكي ، المعهد الدبلوماسي الأردني ، الأردن ١٩٩٨م ،ص١١-١٨ .

لا يصلح للملك وخلع السعيد نفسه وحلف أنه لا يتطرق إلى غير الكرك " ([٢١]) وأذعن لذلك السعيد بالخلع أمام الخليفة.

واستمر الجفاء أيضا مع السلطان بدر الدين بن بيبرس بعد نزول الملك السعيد عن العرش وعين الأمير قلاوون أتابكا([٢٢]) له ، صارت السكة تضرب باسمه على أحد الوجهين وباسم قلاوون على الوجه الآخر ، وخطب لهما أيضا على المنابر([٢٣]) وبذلك اسقط اسم الخليفة من السكة والخطبة .

ولما تولي قلاوون السلطنة المملوكية عام ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م منحه الخليفة الحاكم بأمر الله تفويضاً بالحكم وفيما يلي فقرات منه ... الحمد لله الذي جعل الخلافة العباسية بعد القطوب حسنه الابتسام وبعد الشحوب جميلة الاتسام ، وبعد التشريد كل دار إسلام لها أعظم من دار السلام([٢٤]) ... وأظهر للسلطان سلطانا اشتد به للأمة الظهور وشفيت الصدور ، وأقام الخلافة العباسية في هذا الزمن بالمنصور ، كما أقامها فيما مضي بالمنصور ، وأختار لإعلان دعوتها من يحيي معالمها بعد العفاء ... ومن تصح به كل ولاية شرعية يؤخذ كتابها منه بقوة ... أن يفوض ما فوضه الله إليه من أمر الخلق ، إلى من

---

[٢١]. المقريزي ، السلوك ،ج١ قسم ٢ ص ٦٥٥ . أورد النويري في كتابة نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق نجيب مصطفي فواز ، حكمت كشلي فواز ، دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠٤م ، ١٤٢٤هـ ح٣٠ ص ٢٥٥ . في هذا الصدد أن السلطان الملك السعيد أرسل إلى الأمراء أثناء الحصار وسألهم أن يكون الشام بكماله لهم ، فأبو إلا أن يخلع نفسه من الملك ، فالتمس من سيف الدين قلاوون والأمير بدر الدين بيسري أن يعطوه قلعة الكرم فأجاباه إلى ذلك ونزل من القلعة.

[٢٢]. أتابك ، لفظ تركي مركب من ك أتا بمعني أب أو : الشيخ المحترم وأبك بمعني الأمير ، ويعود استخدامه إلى نهاية العصر العباسي حيث كان لقباً لمربي ومراقب أبناء ملوك السلاجقة . وأول من حمل هذا اللقب نظام الملك وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي عام ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م وفي العصر المملوكي تطور مدلول هذا اللقب ليطلق على أمير الجيش وقائده . زين العابدين شمس الدين ،معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية ، القاهرة ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.ص ١٧ .

[٢٣]. ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، قدم له محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م ، ح٧ ص ٢٤٣ .

٢٤- دار السلام، هي مدينة بغداد، والذي أطلق عليها دار السلام الخليفة أبي جعفر المنصور ، لان نهر دجلة يقال له وادي السلام، ولان المسلمين كانوا يتحاشون قول بغداد لأن (بغ) بالفارسية تعني صنم ،و(داد) تعني عطية فكأنها عطية الصنم. البلاذري، فتوح البلدان،عبد الله أنيس الطباع، عمر أنيس الطباع، بيروت ١٩٥٨م ص٤١٤. ابن رسته، الاعلاق النفيسة، ليدن ١٨٩١م ص ١٠٨؛ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج ٤ ص ٩.

يقوم عنه بفرض الجهاد والعمل بالحق ... ونواب الممالك ونواب الأمصار ، فأحسن لهم الاختيار ، وأجمل لهم الاختيار ، وتفقد لهم الأخبار . والله الموفق بمنه وكرمه " ([٢٥]) .

واتسمت العلاقة بينهما بالمودة ويظهر ذلك من خلال التفويض الذي فوضه للسلطان قلاوون ، فقدم للخليفة الحاكم بأمر الله الاحترام الذي يتفق وصفته الدينية ، ولقوة السلطان وطول مدته في الحكم أصبح الخليفة لا يد له وأصبح خاملاً لا يحرك ساكناً، فتوترت العلاقة وفرض علي الخليفة بعدم الخروج من القلعة ولا يجتمع بأحد من أهل البلاد ولا يخطب الجمعة ([٢٦]) .

ومع الأشرف خليل بن قلاوون بدأت مرحلة جديدة من العلاقة بين الخليفة والسلطة الحاكمة ، حيث سمح للحاكم بأمر الله بالخروج من القلعة ، كما طلب منه أن يخطب في يوم الجمعة ١٤ شوال عام ٦٩٠هـ / ١٢٩١م بجامع القلعة([٢٧]) ،وصار الخليفة منذ ذلك الوقت يخطب في جامع القلعة ويصطحب السلطان في الحفلات الرسمية التي تقام في القبة المنصورية([٢٨]) وقد خطب فيها الحاكم بأمر الله خطبة بليغة حث فيها على الجهاد ، وصلى بالناس . ([٢٩])

---

[٢٥]القلقشندى ، صبح الأعشى ، ح١٠ ص ١١٦ -١١٧ ،ابن عبد الظاهر، مصدر سابق، ص ٢٣٨؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، دار الكتب العلمية ج٧ ص ٣٣٨ -٣٤٠ .

[٢٦]. السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج٢ ص ٥٤ .يقول المقريزي"نقل الخليفة الحاكم بأمر الله من البرج بقلعة الجبل إلي مناظر الكبش بجوار الجامع الطولوني، وأجري له ما يكفيه" المقريزي ، السلوك ،ج١ قسم ٣ ص ٨٢٨.

[٢٧]. جامع القلعة ، أنشأه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٥هـ / ١٣١٥م مكان جامع قديم فهدمه وملاحقاته وأقام مكانه الجامع ، ثم خرب فأعاد بنائه عام ٧٣٥هـ / ١٢٣٤م ، واختار عشرين مؤذنا للجامع ، وقرر فيه درس فقه ، وقارئاً يقرأ في المصحف ، وجعل عليه أوقافاً تكفيه وتفيض ، وصار من بعده من الملوك يخرجون أيام الجمع إلى هذا الجامع ، وهذا الجامع متسع الأرجاء ، مرتفع البناء ، مفروش الأرض بالرخام مبطن السقوف بالذهب ، بشبابيك حديد المحكمة الصنع . للمزيد انظر المقريزي ، الخطط ، ص ٢ ص ٣٢٥ .

[٢٨]. القبة المنصورية ، هذه القبة تجاه المدرسة المنصورية ، وهي من أعظم المباني المملوكية وأجلها ، وبها عدة قبور لأل قلاوون ، وفي وسط القبة فسقية ، وسائر قاعات القبة مفروشة بالرخام الملون ، ويقيم بالقبة عدة مماليك طواشي لخدمتها وخدمة من يقيم بها ، ويقام بهذه القبة دروس للفقهاء على المذاهب الأربعة . للمزيد انظر المقريزي ، الخطط ح٢ ص ٣٨٠.

[٢٩].المقريزي ، السلوك ، ح١ قسم ٣ ص ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٧. لم يذكر بيبرس المنصوري ذكر لهذه الخطبة وذكر الخروج للحرب. التحفه المملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية القاهرة، ١٩٨٧م، ص ١٢٦ – ١٢٨.وأيضا؛ ابن كثير، مصدر سابق، م ٧ ج ١٣ ص ٣٣٩ – ٣٤٠.

وفي عهد السلطان لاجين توطدت العلاقة مع الخليفة الحاكم بأمر الله مما قام بنقله عام ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م من البرج الكبير بالقلعة إلى القصر المعروف باسم مناظر الكبش التي أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب حوالي عام ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م على جبل يشكر بجوار جامع أحمد بن طولون وأصبحت بعده من المنازل الملوكية ، وأذن له بالخروج من القصر للنزهة كيفما شاء ، كما سمح له بأن يخطب يوم الجمعة بجامعة القلعة ، وصار يركب مع السلطان في المواكب ثم أذن له بالذهاب إلى القلعة مرة في كل شهر ليهني السلطان بحلول الشهر الجديد ([٣٠]) .

والسبب في هذا الرضا الكبير من السلطان لاجين التأييد الكبير للخليفة الحاكم بأمر الله للسلطان لاجين في وقت كان يتنازع فيه الأمراء على الاستئثار بالسلطة، وخاصة بعد خلع السلطان الناصر محمد عن العرش عام ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م لذلك نظر السلطان لاجين إلى الخليفة نظرة إكبار وإجلال لهذا الموقف ، لذلك عاد الخليفة إلي الظهور في المجتمعات العامة بعد أن عمل كل من السلطان بيبرس والسلطان قلاوون على عدم اتصاله بخواص الدولة ورجالات الشعب وصار يرسل له المال ، وأستأذن السلطان بأن يحج فإذن له في ذلك ، وأنعم عليه بمال جزيل ، يصرفه على إقامة برك مياه علي طول درب الحج المصري ([٣١]) .

بعد قتل السلطان لاجين عام ٦٨٣هـ /١٢٩٩م رحب الخليفة الحاكم بأمر الله باستعادة السلطان الناصر محمد لعرشه مرة ثانية وعمرة أربع عشرة سنة ، رغم أن الخليفة كان قد أقر عزل السلطان الناصر محمد من السلطة عام ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م وذلك لصغر سنه البالغ تسع سنين ([٣٢]) ، لذلك لا نعجب إذا رأينا هذا الخليفة يرحب باستعادة الناصر عرشه ، ويمنحه تفويضاً لم يسبق ان منح مثله عندما ولي السلطنة لأول مرة .

---

[٣٠].ابن كثير، مصدر سابق، م ٧ ج ١٣ ص ٣٩٦. ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج١ ص ٣٩٨ .

[٣١]. المقريزي ، السلوك ، ج١ قسم ٣ ص ٨٢٨ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج١ ص ٣٩٨ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ح٢ ص ٥٤ .

[٣٢]. المقريزي ، السلوك ، ج١ قسم ٣ ص ٧٩٤، ٨٠٦ ؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، طبع مصر، ج٨ ص ٤٨.

ولكن التفويض الذي أعلنه كاملاً عند القلقشندى يؤكد حرص الخليفة الحاكم بأمر الله في التفويض على رد الحقوق إلى أهلها ، وأحقيه الناصر محمد في لسلطنة مصر ، كما رسم له الخطة التي ينبغي أن يسير عليها في إدارة شئون البلاد ، ([٣٣]) .

وعلى أساس هذا التفويض سار السلطان والخليفة على أكمل وجه في العلاقة إلى أن توفي الحاكم بأمر الله سنة ٧٠١هـ / ١٣٠١م ودفن بجوار المشهد النفيسي ([٣٤]) .

٤-الخليفة المستكفي وعلاقته بالسلطان الملك الناصر :

قبل وفاة الخليفة الحاكم بأمر الله عهد بالخلافة لابنه الأمير أبي عبد الله محمد ولقبه المستمسك بالله ، وجعل أبا الربيع بعده ، فمات المستمسك ، فعهد لابنه إبراهيم من بعده ، فلما مات الخليفة الحاكم لم يُقدم بعده إلا أبا الربيع وعمره عشرون سنة ولقب بالمستكفي بالله ([٣٥]) ، إلا أن السلطان الناصر رأي ألا يعترفا ببيعته نظراً لصغر سنه إلا بعد استشارة قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد ، فلما أقر هذا القاضي صلاحيته للخلافة بايعه السلطان والقضاة ، ومن هنا نلاحظ أن الخلافة أصبحت منحه يمنحها السلطان لمن يشاء ويصرفها عمن يشاء .

ثم أمر السلطان الناصر بأن يقيم الخليفة المستكفي في قصر بقلعة الكبش وبأن يمنح ما كان مقرراً لوالده من الرواتب ([٣٦]) ، كما حدد له اختصاصاته على نحو ما كان متبعاً في أيام أبية الخليفة الحاكم بأمر الله ، فأمر أن يخطب له في الجوامع وأن ينقش اسمه

---

[٣٣] للمزيد عن هذا التفويض أنظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، ح١٠ ص ٥٩-٦٨ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ح٢ ص ٥٤ .

[٣٤] . ابن أيبك الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، الدرر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس روبرت رويمر، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م، ، ج٩ ص ٧٩ ، المقريزي ، السلوك ، ج١ قسم ٣ ص ٩١٩ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ح٢ ص ٥٤ ، السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٨م، ، ص ٥٥٥ .

[٣٥] . المقريزي ، السلوك ، ج١ قسم ٣ ص ٩١٩ – ٩٢٠ السيوطي ، من المحاضرة ج٢ ص ٥٥ ، على إبراهيم حسن ، تاريخ المماليك البحرية ، ص ٢٥٩ .

[٣٦] . كان راتب الخليفة الحاكم يأمر الله في الشهر خمسمائة دينار وثماني أرادب قمح وثلاثة أرادب شعير وفي كل يوم أربع جرايات خبز وعشرين رطلا من اللحم عدا الكسوة ، انظر على إبراهيم حسن ، تاريخ المماليك البحرية ،ص ٢٦٠ هامش (١) .

على الدينار والدرهم ([٣٧])، ومن الغريب حقاً أن الناصر كان يعلم تمام العلم أن اسم الخليفة الحاكم لم ينقش قط على السكة مع أن الظاهر بيبرس منحه هذا الحق ، ولكن الناصر برغم ذلك رأي إظهار احترامه للخليفة المستكفي بن الحاكم بتقرير تمتعه بهذا الأمر الصوري .

إضافة إلى نقل الخليفة المستكفي وعائلته إلى القلعة في ٢٣ ذوي القعدة عام ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م إكراما لهم فنزلوا في دارين ، واستمر الخليفة والسلطان كالأخوين يلعبان بالكرة ، ويخرجان إلى السرحات ، وسافرا معا إلى غزوة التتار عندما زحفوا على دمشق عام ٧٠٢هـ / ١٣٠٢، ([٣٨]) وكان للخليفة الدور الفعال في شد أزر المقاتلين بحثهم على الجهاد ، فكان لهذا المظهر الديني الرائع أثره البالغ في نفوس الجيوش الإسلامية ، فازدادت حماستهم في الذود عن بلادهم والتقت جموعهم المغول في سهل مرج الصفر بالقرب من دمشق([٣٩]) وأوقعوا بهم الهزيمة([٤٠]) . مما يتقدم يبين لنا كيف استغل السلطان الناصر محبة الشعب لشخصية الخليفة ، فاستعان به في حث المصريين على الجهاد ، وكان لهذه السياسة أثرها في وقوف أهل مصر في وجه المغول وقفه رجل واحد ، إضافة إلى ذلك استخدم السلطان الناصر الخليفة لمنع ذكر اسم ملك اليمن على اسم السلطان الناصر في الدعاء بمكة ([٤١]) .

ولما أستقر الأمر للسلطان الناصر محمد في مصر ، عمل على الاستبداد بالسلطة ، كما أضعف من شأن الخليفة حتى لا يحاول الاتفاق مع بعض الأمراء على خلعه ، ولم يزل يعترضه ويكدر صفو حياته حتى أمر بنقله من مناظر بقلعة الكبش إلى أحد الأبراج بقلعة الجبل فكانت مدة اعتقاله خمسة أشهر وسبعة أيام . ثم شفع فيه عند السلطان الأمير قوصون فأفرج عنه وأمره بالنزول عن القلعة ، فنزل بداره الكائنة بتربة شجر الدر بالقرب من

---

[٣٧]. السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج٢ ص ٥٩ .

[٣٨]. السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج٢ ص ٥٩ ، تاريخ الخلفاء ، ص ٥٦٠ .

[٣٩]. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥ ص ١٠١.ومرج الصفر تبعد عن دمشق ٢١ كم إلي الشمال . منير الزيب، معجم أسماء المدن والقرى في بلاد الشام الجنوبية، دار العراب للدراسات والنشر والترجمة، دمشق سوريا، ٢٠١١م، ص ١٦٦.

[٤٠]المقريزي ، السلوك ، ح١ قس٣م ص٩٣١. ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج١ ص ٤١٤ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج٢ ص ٥٩ ، تاريخ الخلفاء ،ص٥٥٧ .

[٤١]. المقريزي ، السلوك ، ح٢ قسم١ ص ٣٣ .

المشهد الحسيني ، ثم بلغ السلطان عن الخليفة أنه يجتمع بجماعة من الناس ويكثر اللهو بداره التي أنشأها السلطان على النيل بخط جزيرة الفيل ([٤٢]) ، وأن الجمدارية([٤٣]) يقال له أو بشامة جميل الوجه ينقطع عنده ويتأخر عن الخدمة ، فقبض على الجمدار ونفي إلى صفد([٤٤]) وضرب رجل من مؤذني القلعة – اتهم أنه كان السفير بين الجمدار وبين الخليفة حتى مات ، ثم نسب إلى ابنه صدقة أنه تعلق ببعض خاصة السلطان ، وأن الغلام يتردد إليه ، فنفي الغلام ، ولهذه الأسباب اعتقل الخليفة، ثم لما أفرج عنه وأمر به أن يخرج إلى قوص بجميع عياله وهم مائة شخص ، وكان مرتبة في كل شهر خمسة آلاف درهم ، فعمل له بقوص ثلاثة آلاف درهم ، ثم استقر ألف درهم ، فأحتاج حتى باع نساؤه ثيابهن ([٤٥]) . على أن إقصاء الخليفة المستكفي عن مقر الخلافة بالقاهرة ، لم يحل دون ذكر اسمه في الخطبة مع اسم الناصر محمد إلى أن توفي بقوص عام ٧٤٠هـ / ١٣٣٩م ([٤٦]) .

ولما مات الخليفة المستكفي بالله لم يلتفت السلطان الناصر إلى أحمد بن المستكفي ، وكان أبوة قد عهد إليه بالخلافة من بعدة ، إلا أن الناصر كان يريد تحويل الخلافة إلى

---

[٤٢]. جزيرة الفيل ، هذه الجزيرة هي الآن – زمن المقريزي – بلد كبير خارج باب البحر من القاهرة ، وتتصل بمنيه السيرج من بحريها ويمر النيل من غربيها وبها جامع تقام به صلاة الجمعة وسوق كبير وعدة بساتين جليلة وصلت عددها إلى ١٥٠ بستان وكانت بساتينها وأسواقها وقف للمارستان المنصوري . للمزيد انظر المقريزي ، الخطط ، ج٢ ص ١٨٥- ١٨٦ .

[٤٣]. جمدار ،جمعها جمدارية،وجمدار لفظ فارس مركب ، معناه : المسئول عن غرفة الملابس أو المستحمين ، أصبح لقباً في العصر الأيوبي وما بعده لموظف من مرتبة أمراء الطلبخاناه ، اتصل عمله بالعناية بخزانة ملابس الملك أو السلطان ، وإلباسه الثياب الخاصة بكل مناسبة ، مصطفي عبد الكريم الخطيب ، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٦هـ /١٩٩٦م ، ص ١٢٦ .

[٤٤]. صفد ،مدينة في جبال عاملة المطلة علي حمص بالشام، وهي من جبال لبنان. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣ ص ٤١٢.

[٤٥]. المقريزي ، السلوك ، ج٢ قسم ٢ ص ٤١٦ – ٤١٧ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، دار الجيل بيروت ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ج٢ ص ١٤٢- ١٤٢، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج٢ ص ٥٩ ، تاريخ الخلفاء ، ٥٦٠ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج١ قسم ٢ ص ٤٧٤ .

[٤٦]. اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق أحمد حطيط، عالم الكتب بيروت لبنان، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ص ٣٦٢؛ المقريزي ، السلوك ، ج٢ قسم ٢ ص ٥٠٢ السيوطي ، حسن المحاضرة ، ص ٥٩ ، ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار إحياء التراث العربي بيروت(د – ت) ج ٦ ص ١٢٦؛على إبراهيم حسن ، مرجع سابق ، ص ٢٦١ ..

عباسي آخر اسمه إبراهيم ابن المستمسك بن أحمد الحاكم بأمر الله ، وجمع القضاة وأمرهم بمبايعتهم ، ولكنهم رفضوا ذلك لعدم أهليته من جهة ولأن الخليفة المستكفي قد عهد إلى ابنه أحمد: بشهادة قاضي قوص ، ولكن السلطان أمر بإحضار إبراهيم ، وأعلن توبته أمام السلطان فبايعه ولقب بالواثق([٤٧]).

ظل الخليفة الواثق في منصبة سنة وأربعة أشهر ، فلما دنا أجل السلطان الناصر أوصي بتحويل الخلافة إلى أحمد وفق وصية أبيه المستكفي بالله وندم على تولية الواثق بالله إبراهيم . وتم تولية أحمد بن المستكفي عام ٧٤١هـ / ١٣٤٠م ولم يمر وقت طويل على خلافته حتى توفي عام ٧٥٣هـ / ١٣٥٤م وبويع أبو بكر بن المستكفي ولقب بالمعتضد بالله واستمر إلى عام ٧٦٣هـ / ١٣٦١م بعد أن عهد بالخلافة لأبنه أبي عبد الله بن المستكفي وتلقب بالمتوكل على الله ([٤٨]) ، وكانت علاقته بالسلطان الناصر حسنه حيث سمح له بالحج ([٤٩]) .

وعن هذه الأعمال التي ارتكبها السلطان الناصر في حق أولاد الخليفة المستكفي يقول السيوطي " ثم أن الله أنتقم من الناصر في أولاده فسلط عليهم الخلع والحبس والتشريد في البلاد والقتل ... ثم أن الله فجع الناصر بموت أعز أولاده الأمير أنوك ،فكان ذلك أول عقوباته ولم يتمتع بالملك بعد وفاة المستكفي ، فأقام بعده سنة وأياما ، وأهلكه الله " ([٥٠]) .

أما الخليفة المتوكل على الله فكانت حياته سلسلة متتابعة من العزل والحبس .حيث بدت في عهد الخليفة المتوكل رغبة من بعض أمراء مصر في الرجوع بالخلافة إلى عهدها الأول . وكان النزاع على السلطة في مصر هو الذي أوحى إليهم بإبراز هذه الفكرة إلى حيز التنفيذ ، ذلك أن السلطان الملك الأشرف شعبان ، كان قد خرج مع الخليفة والقضاة الأربعة

---

[٤٧]. السيوطي ، حسن المحاضرة ، ح٢ ص ٥٩-٦٠. ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب،ج٦ ص ١٧٣.

[٤٨]. السيوطي ، حسن المحاضرة ، ص ٧٠-٧١ ، تاريخ الخلفاء ، ٥٦٣ – ٥٦٥ .ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب،ج٦ ص١٩٨.

[٤٩]. المقريزي ، السلوك ، ح٢ قسم ٣ ص ٩٠٣ .

[٥٠]. السيوطي ، حسن المحاضرة ، ح٢ ص ٦٠ .

في أبهة وزينة لأداء فريضة الحج سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٧م فلما وصل ركنه إلى العقبة([٥١]) حدث بينه وبين المماليك السلطانية خلاف ([٥٢]) ، ثم بلغه بعد قليل أنهم دبروا مع بعض الأمراء مؤامرة لاغتياله ، وكان ذلك مما على الاشتباك معهم ، غير أنه ما لبث أن هزم وهرب إلى القاهرة ، .... اتفق من بقي من الأمراء والمماليك بالعقبة على الاجتماع بالخليفة ([٥٣]) ... مثلوا بين يديه قالوا له : " يا أمير المؤمنين تسلطن ونحن بين يديك "... عن قبول السلطنة رغم إلحاحهم عليه وتجهيزهم الخلع الخاصة بها ، بل اختاروا من شئتم وأنا أوليه " ورجع مع القضاة إلى مصر . السبب في رفضه السلطنة إلى أنه كان يعلم أن الفرصة لم تسنح بعد للعمل استعادة نفوذ الخلافة ، كما أن الأفكار في مصر لم تكن معدة للقضاء علي نفوذ أسرة قلاوون ، ومما يؤيد ذلك الرأي أنه بينما كان الأمراء يعرضون السلطنة على المتوكل أثناء إقامته بالعقبة ، استقر الرأي في مصر بعد قتل الأشرف شعبان على تولية ابنة الأمير علي ، ثم بايعه بالسلطنة الخليفة المتوكل على أثر عودته من العقبة . كما احتفل بعد ذلك بقراءة تقليده بإيوان الجبل ، وخلع على الخليفة ([٥٤]) .

وقد أحسن الخليفة المتوكل صنعاً بامتناعه عن قبول السلطنة لأن الأمور في مصر لم تكن مستقرة بسبب تنافس الأمراء على الاستئثار بالنفوذ دون السلاطين الذين أصبحوا ألعوبة في أيديهم ، ذلك أن الأمير أينبك البدري لم يلبس أن استبد بالسلطة على أثر تولية الملك المنصور على بن الأشرف شعبان عرش مصر ، وأصبح مطلق التصرف في شئون الدولة . وقد بلغ من ازدياد نفوذه أن استدعي الخليفة المتوكل على الله وطلب منه أن يقلد الأمير أحمد بن الأمير يلبغا العمري السلطنة ، فاعتذر له بأن الأمير أحمد ليس من بيت الملك ، فحاول أينبك أن يثنيه عن عزمه بقوله : " إنما هو ابن السلطان حسن ، حملت به

[٥١] .العقبة. منزل في طريق مكة بعد الخروج من سيناء إلي الحجاز أو إلي الشام. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤ ص ١٣٤.

[٥٢] .ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١ ، ص ١٤٨؛ الجزيري ، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م ج١ ص ٤١٧.

[٥٣] . ابن إياس : بدائع الزهور، ج١ ص ٢٣٣ ، ٢٣٥ . الجزيري ، الدرر الفرائد المنظمة، ج١ ص ٤١٧.

[٥٤] . المقريزي : السلوك ٣ قسم ١ص ١٠٦ ، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص ١٤٨.

أمه ، فلما قتل السلطان ، أخذها الأمير يلبغا ، فولدته على فراشه " ؟ غير أن هذا الخليفة – رغم هذا التحايل – أبي أن يجيبه إلى طلبه ، فاستاء منه الأمير أينبك وعاب عليه وانصرافه إلى اللعب بالحمام واقتناء الجواري المغنيات والضرب بالعود ، كما نهره وأمر بنفيه إلى قوص : فأخذ المتوكل يجهز نفسه للسفر ، ثم بعث الأمير أينبك في طلب زكريا بن إبراهيم ابن محمد بن أحمد الحاكم بأمر الله ونصبه خليفة بدل المتوكل من غير مبايعة ولقبه المعتصم بالله ، غير أنه ما لبث أن عدل عن نفي المتوكل ([٥٥]) ، ثم أعاده إلى كرسي الخلافة ، وخلع عليه السلطان كما جرت به العادة في ذلك العصر ([٥٦]) .

ولم يكن الخليفة المتوكل زاهداً في السلطنة ، بل كان يتحين الفرص لإحياء مجد الخلافة القديم . فلما حسن له بعض رجال الدولة طلب الملك بعد التقلص نفوذ سلاطين أسرة قلاوون وتقلد برقوق عرش السلطنة ، راسل الأمراء والعربان بمصر والشام والعراق ، وبث الدعاة في البلاد الإسلامية ليحببوا إلى رعاياها الدخول في طاعته ([٥٧]) ، هذا إلى أنه قد وصل إلى مسامع برقوق أن الخليفة المتوكل اتفق مع الأمير قرط بن عمر التركماني([٥٨]) ، وإبراهيم ابن قطلوتمر العلائي([٥٩]) وجماعة من الأكراد والتركماني على تدبير مؤامرة

---

[٥٥] المقريزي : السلوك ٣ قسم ٢ص ٥٤٩٠

[٥٦] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ح٥ ص ٣٠١، الديار بكري، تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، القاهرة ١٨٢٣م ج٢ ص٣٨٢.

[٥٧] ٠ السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢ ص ٦٧- ٦٨.

[٥٨] ٠ الأمير قرط بن عمر التركماني ، تولي في بدأ أمرة ثغر أسوان ، عام ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م وفي عام ٧٨١هـ / ١٣٧٩م قبض عليه لأخذه الأموال بدون وجه حق ، ثم أفرج عنه وتولي نائب الوجه القبلي ، وخلع على ولده حسين ولاية قوص ، وتتوالى أعماله حتى ينعم عليه السلطان بإمرة طبلخانة فتولي نائب البحيرة والوجه البحري وأنعم عليه بعدد كثير وأسلحة ومات عام ٨٠٠هـ / ١٢٩٧م . انظر المقريزي ، السلوك ، ج٣ قسم١ ص ٣٣٩ ، ٣٥٢- ٣٥٣ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦٦ – ٣٦٧ ، ٤٠٢ – ٤٠٤ ، ٩١٢.

٠٥٩ إبراهيم بن قطلوتمر العلائي . انعم عليه السلطان الملك المنصور علي بن السلطان الملك الأشرف شعبان بن محمد بن قلاوون برتبة إمرة طبلخاناة ، ثم ترقي إلى إمرة جندار إلا إنه كان ممن تأمروا على السلطان لتولي الخليفة بدلا منه ، ولما فشلوا حوكم إبراهيم بن العلائي وسمر ومشوا به في القاهرة ولكن شفع فيه وسجن بسجن شمايل ، ثم عفا عنه السلطان وأنعم عليه بإمرة مائة وأستقر أمير مجلس ، واستمر إلى أن مات عام ٧٩١هـ / ١٣٨٨م انظر المقريزي ، السلوك ، ج٣ قسم ١ ص ٢٨٨ ، قسم ٢ ص ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٦٤٧ – ٦٤٨ – ٦٨٣ .

لاغتياله وتنصيبه سلطاناً بدله ([٦٠]) مما كان له أسوأ الأثر في نفس برقوق ، فبعث في طلب الخليفة المتوكل ومن أنحاز إلى جانبه من الأمراء . ولما مثلوا بين يديه أخذ يسأله كلا منهم عما بلغه عنه ، فقال قرط : " الخليفة طلبني وقال (لي) إني أقلد برقوقاً السلطنة إلا غصباً . وقد أخذ أموال الناس بالباطل ، وطلب مني أن أقوم معه وأنصر الحق . فأجبته إلى ذلك ووعدته بالمساعدة وأن أجمع له ثمانمائة فارس من الأكراد والتركمان وأقوم بأمره ، ثم وجه السلطان كلامه إلى الخليفة ، فقال : ما قولك في هذا ؟ فرد عليه المتوكل بقوله : " ليس لما قاله صحة " ، فسال السلطان الأمير إبراهيم بن قطلوتمر عن ذلك ، فقال " ما كنت حاضراً هذا الاتفاق . لكن الخليفة طلبني إلى بيته بجزيرة الفيل وأعلمني بهذا الكلام وقال لي : إن هذا مصلحة ورغبتي في موافقته والقيام لله تعالي ونصره الحق ، فأنكر الخليفة ما قاله إبراهيم ، واشتد حنق السلطان على المتوكل وسل السيف ليضرب به عنقه ، غير أن سودون نائب السلطان الذي كان حاضراً إذا ذاك سرعان ما حال بينه وبين الخليفة ([٦١]) ، وما زال به حتى هدأ من غضبه ، لكن السلطان – رغم ذلك – ظل ناقما عليه وعول على إقصائه عن الخلافة ، فعزله وزجه في السجن بقلعة الجبل ، ثم وقع اختياره على عمر بن إبراهيم عم المتوكل ، فولاه الخلافة وتلقب بالواثق بالله ([٦٢]) . وظل الواثق بالله يلي أمور الخلافة إلى أن توفي سنة ٧٨٨هـ/١٣٨٦م ، فتحدث بعض رجال الدولة مع برقوق في إعادة المتوكل ، لكنه أبي واستدعي زكريا ابن الخليفة المعتصم بالله بابنه إبراهيم وبايعه . بالخلافة ، ولقب بالمستعصم بالله وخلع عليه السلطان خلعة الخلافة ، كما عهد إليه بالإشراف على المشهد النفيسي ([٦٣]) .

---

[٦٠]. ابن حجر العسقلاني : أنباء الغمر بأنباء العمر ، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م ج١ ٣٦٨.

[٦١]. المقريزي : السلوك ج٣ قسم٢ ص ٤٩٤، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ القسم الثاني ص ٣٧٣ – ٣٧٤ .

[٦٢]. المقريزي : السلوك ج٣ قسم ٢ ص ٤٩٥ .

[٦٣]. السيوطي " حسن المحاضرة ج٢ – ٦٧ .ابن العماد الحنبلي، مصدر سابق، ج ٦ ص ٣٠٣.

وقد أثار خلع المتوكل من الخلافة ([٦٤]) كراهة بعض رجال الدولة للسلطان برقوق ، حتى أن يلبغا الناصري نائب حلب خرج على طاعته واتخذ من عزله الخليفة سلاحا شهره ضده ، كما أذاع في بلاد الشام ، ما ألحقه هذا السلطان من الإساءة للخليفة ، فنفرت القلوب منه ([٦٥]) وما زال نفوذ الأمير يلبغا في ازدياد حتى كثر أتباعه واستولي على بعض القلاع والمدن في البلاد الشامية .

ولما اشتد خطر يلبغا الناصري وأوشكت عساكره على دخول مصر عول السلطان برقوق على إعادة المتوكل إلى الخلافة ([٦٦]) ، فاستدعاه لمقابلته ولما مثل بين يديه قام له السلطان ورحب بلقائه ، واعتذر له عما وقع منه ثم بعث إليه بعشرة آلاف درهم وبعض الأقمشة الصوفية والحريرية . وبعد شهرين عقد السلطان اجتماعا حلف فيه القضاة كلا من المتوكل وبرقوق للآخر على الموالاة والمصالحة ، ثم خلع السلطان على الخليفة خلعة الرضي ، وأمر بأن عاد إليه أقطاعاته ورواتبه ، كما أذن له في النزول إلى داره وأخلي له بيتا بقلعة الجبل . وفي ١٢ جمادي الأولي سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م أقام برقوق بمشهد السيدة نفيسة احتفالا قرئ فيه تقليد المتوكل بحضور القضاة ونائب السلطنة ([٦٧]) .

على أن إعادة المتوكل إلى منصبه لم يكن لها أي أثر في تهدئة الفتنة التي أثارها الأمير يلبغا الناصري الذي دخل القاهرة على رأس جيش كبير وانضم إليه كثير من أتباع السلطان برقوق ، فاضطر هذا إلى الفرار من القلعة وظل مختفيا إلى أن قبض عليه وسجن بالكرك ([٦٨]) .

---

[٦٤]. ذكر ابن تغري بردي في النهل الصافي المستوفي بعد الوافي ، تحقيق محمد محمد أمين ، نبيل محمد عبد العزيز ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٦م ،ج٣ ص ٩٢ ، أن خلع المتوكل من الخلاف، كان من الأمور التي احتج بها يلبغا على برقوق لما خرج على طاعته .

[٦٥]. ابن حجر العسقلاني : أنباء القمر بأنباء العمر، ج ١ ص ٣٦٦، الديار بكري : الخميس في أحوال أنفس نفيس ، ج٢ ص ٣٨٣ .

[٦٦]. المقريزي : السلوك ، ج٣ قسم ٢ ص ٦٠٢،أبن إياس، بدائع الزهور، ج ١ قسم ٢ ص ٣٩٩.

[٦٧]. المقريزي : السلوك ج٣ قسم ٢ ص ٦٠٢، ص ١٧٠ ، أبن إياس، بدائع الزهور، ج ١ قسم ٢ ص ٣٩٩.

[٦٨].المقريزي : السلوك ج٣ قسم ٢ ص ٦١٥، ص ١٧٠ ، أبن إياس، بدائع الزهور، ج ١ قسم ٢ ص ٤٠١ – ٤١٣.

ولما استقر الأمر . ليلبغا الناصري بالقاهرة ، اجتمع بالخليفة والأمراء بقلعة الجبل ([٦٩]) ، وقال للمتوكل: " يا مولانا أمير المؤمنين ما ضربت بسبقي هذا إلا في نصرتك ، ثم أخذ بعد ذلك يشاورهم فيمن يصلح لسلطنة مصر ، فأظهر المتوكل زهده في الملك ، وأشار بإعادة الملك الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان ([٧٠]) أما الأمراء فقد ألح أكثرهم على الناصري في قبول السلطنة ، لكنه رفض وأيد أحقية الملك الصالح أمير حاجة في استعادة عرشه ومن ثم استدعاه الأمراء وأجلسوه على عرش السلطنة ولقب بالملك المنصور كما فوض إليه الخليفة المتوكل على الله النظر في أمور رعاياه([٧١]) .

على أن موقف سلاطين مصر من الخلفاء العباسيين في القاهرة ما لبث أن تبدل بعد زوال نفوذ أسرة قلاوون إذ عدل السلطان برقوق بعد خروج يلبغا الناصري عليه من سياسة العنف التي اتبعها إزاء الخليفة المتوكل وتعالي في احترامه ، ولا أدل على ذلك مما أورده القلقشندى ([٧٢]) : " كان المتوكل إذا حضر إلى مجلس السلطان برقوق قام له وربما مشي إليه خطوات ، وجلس على طرف المقعد وأجلس الخليفة إلى جانبه " كما احتفظ له بمكانة سامية في الدولة ، فعينه حين أحس بدنو أجله ناظراً على الأوصياء الذين عهد إليهم بالوصاية على ابنه فرج ([٧٣]) ، وبذلك استعاد هذا الخليفة بعض ما كان له من نفوذ علت مكانته وأصبح موضع احترام وإجلال رجال الدولة على اختلاف مراتبهم .

وكان الأمراء في مصر يرون بقاء أبناء السلطان الناصر محمد في السلطنة رغم ضعفهم وذلك تمشيا مع مصلحتهم الخاصة ، حتى يتيسر لهم الاستئثار بالنفوذ دونهم . فلما انسلخ الحكم من بين قلاوون بدأ فريق منهم يشعر أنه لم يعد من مصلحتهم إبقاء نظام الحكم في مصر على ما هو عليه ، وخاصة أن السلطان برقوق لم يكن من بيت الملك ،

---

[٦٩] .أبن إياس، بدائع الزهور، ج ١ قسم ٢ ص ٤٠٢. لم يشر ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ج٥ القسم الثاني ص ٤١٨ ، على حضور الخليفة هذا الاجتماع .

[٧٠] . السيوطي ، حسن المحاضرة ج٢ ص ٧٤، أبن إياس، بدائع الزهور، ج ١ قسم ٢ ص٤٠٢.

[٧١] . السيوطي ، حسن المحاضرة ج٢ ص ٧٤. أبن إياس، بدائع الزهور، ج ١ قسم ٢ ص٤٠٣. ابن العماد الحنبلي، مصدر سابق، ج٧ ص ٧٨.

[٧٢] . القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٣ ص ٢٧٦- ٢٧٧.

[٧٣] . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج٥ القسم الثاني ص ٣٩٨ .

ومن ثم دبرت المؤامرة التي أشرنا عليها للتخلص من هذا السلطان وتقليد الخليفة المتوكل عرش السلطنة .

٥-خلافة المستعين بالله وعلاقته بسلاطين المماليك :

ومن الملاحظ عبر تاريخ الخلافة العباسية بمصر ، أنه لم يتولي أي خليفة عباسي بها أية سلطة سياسية أو حكم ([٧٤]) ، سوى ما حدث في عام ٨١٥هـ (١٤١٢م) ، عندما " استقل الإمام المستعين بالله خليفة العصر بأمر الخلافة : من الكفاية على العهود ومناشير الإقطاعيات والتقاليد والتواقيع والمكاتبات وغيرها ، وأفرد بالدعاء على المنابر في مصر وفوق بئر زمزم كل ليلة وعلي منابر مكة والمدينة المنورة يوم الجمع وضرب اسمه على الدنانير والدراهم والطرز " ([٧٥])، ومعني ذلك أن الخليفة المستعين تقلد حكم مصر بمفرده وأصبح في يديه كل السلطات ، مما يجعل ذلك الحدث حدثاً غير عادي في تاريخ مصر زمن المماليك .

وهذا الحدث الغير عادي يجعلنا نتساءل : هل شخصية الخليفة المستعين تختلف عن شخصية من سبقه من خلفاء ، الأمر الذي جعله قادراً على تحقيق قدر أو نوع من السلطة لم يحققه من سبقه من خلفاء ؟ ثم ما هي الظروف التي أحاطت بتولية المستعين حكم مصر ؟ وهل استطاع المستعين أن يكبح جماح أمراء المماليك في مصر والشام ويقبض على زمام الأمور ويستمر في حكم البلاد.

في يوم الاثنين الرابع من شعبان عام ٨٠٨هـ (١٤٠٥م) استدعي السلطان الناصر فرج بن برقوق (٨٠١-٨١٥هـ /١٣٩٨-١٤١٢م) سلطان الديار المصرية أبا الفضل العباس بن الخليفة المتوكل على الله أبي عبد الله بن محمد " وبايعه بالخلافة بعد وفاة أبية

---

[٧٤]. يشير القلقشندى إلى حال الخلافة العباسية بمصر فيقول " أن الذي استقر عليه حال الخلفاء بالديار المصرية أن الخليفة يفوض الأمور العامة إلى السلطان ، ويكتب له عنه عهد بالسلطنة ويدعي له قبل السلطان على المنابر إلا في مصلي السلطان خاصة في جامع مصلاه بقلعة الجبل المحروسة ، ويستبد السلطان بما عدا ذلك : من الولاية والعزل وإقطاع الاقتطاعات حتى للخليفة نفسه ، ويستأثر بالكتابة في جميع ذلك ، ،صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ح٣ ص٣٧٥.

٧٥. الخالدي، الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم المعروف المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشا، تحقيق أشرف محمد أنس، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ج١ ص ١٩٣.

المذكور " فتلقب بالمستعين بالله ([٧٦]) ، ولبس التشريف ، وأستقر بداره ([٧٧]) وقد وصف المستعين هذا بأنه كان " دينا فيه خير وإحسان ولين ، حشما وقوراً مهابا([٧٨]) .

غير أن حال الخليفة المستعين كان أصعب من حال من سبقه من الخلفاء ، وذلك لما وصف به السلطان فرج بن برقوق – سلطان الديار المصرية زمن خلافة المستعين – بأسوأ الأوصاف ، فيجمع المؤرخون على أنه كان " أشأم ملوك الإسلام ، فإنه خرب بسوء تدبيره جميع أراضي مصر وبلاد الشام ([٧٩]).

٦-الظروف السياسية قبل تعين الخليفة المستعين :

وامتلأ حكم الناصر فرج بالاضطرابات الداخلية ([٨٠]) ، حيث خرج عليه كثير من أمرائه ببلاد الشام ، وكذلك داخل مصر نفسها ، عندما أختفي سبعين يوما ، قضاها في لهو وطرب وأكل وشرب وبسط وانشراح " في حين عهد الأمراء إلى أخيه المنصور عبد العزيز بأمر السلطنة واجتماع حول عبد العزيز عدد كبير من المماليك والأمراء ، مما أدي إلى حدوث عدة اضطرابات وفتن عندما عاد الناصر فرج إلى السلطنة مرة أخري ، وأخذ يتعقب أمراء ومماليك أخيه عبد العزيز بالقتل ([٨١]) .

غير أن الخطر الأكبر الذي تعرض له السلطان فرج بن برقوق جاء من جانب الأميرين " نوروز " نائب طرابلس ([٨٢]) ، و" شيخ " نائب حلب ، اللذين خرجا على السلطان

---

٧٦. تذكر بعض المصادر أنه تلقب بالمعتصم .انظر،علي بن داوود الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٧٠م ، ح٢ ص ٢١٧ .

٧٧. المقريزي : السلوك ج٤ ق١ ص ١٤ ، أبو المحاسن : النجوم ١٣ ج ص ٥١ .

٧٨.المقريزي ، الخطط ح٢ ص ٢٤٢ . ابن داود الصيرفي : نزهة النفوس ح٣ ص ٢٠٩.

٧٩. المقريزي : السلوك ، ح٤ قسم ١ ص ٣٢٥ . أبو المحاسن : النجوم ، ح١٣ ص ١٥١.

٨٠. عن تدهور الأحوال الاقتصادية زمن الناصر فرج انظر . عثمان علي محمد عطا، الأزمات الاقتصادية في العصر المملوكي وأثرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة٢٠٠٢م ص ٥٣ ـ ١٥٤ .

٨١. ابن داود الصيرفي : نزهة النفوس ، ح٢ ص ٢١٢- ٢١٧ .

٨٢. كان نوروز متزوجا من أخت السلطان الناصر فرج ، وانظرا للعداء والكراهية التي كانت في قلب الناصر فرج تجاه نوروز ، أمر أخته بالانفصال عن زوجها نوروز . الصيرفي : نزهة النفوس ، ح٢ ص ٢١٢- ٢١٧ .

فرج وأخذا في إقطاع البلاد لأتباعهما وفي الاستيلاء على مختلف الحصن والقلاع ببلاد الشام " ([٨٣]) .

وقد خشي السلطان الناصر فرج من أطماع كل من نوروز وشيخ ، لذلك قرر الخروج إلى بلاد الشام ومحاربتهما " فجهز عساكره وحمل معه خزائنه وحريمه وخرج معه الخليفة المستعين بالله أبو الفضل العباسي والقضاة الأربعة ، ونزل بالريدانية([٨٤]) في أواخر عام ٨١٤هـ (١٤١٢م) ومنها اتجه إلى غزه ، وبعد أن تجمع جيشه بغزه ، أخذ في السير صوب دمشق([٨٥]) .

ومما يذكر أن السلطان الناصر فرج كان كثير السكر ، شديد التهور ، سفاكاً" للدماء ، حيث ذبح عشرين رجلاً من المماليك ، كما قتل زيادة علي مائة من أكابر الجراكسة وعتاقها ، وأمر والي القاهرة بنقل عشرة من المماليك لتخلفهم عن الركوب معه ومن تخلف قتله ، مما جعلهم يفرون منه ويلتجئون إلى عدوة نوروز وشيخ ([٨٦]).

وأتجه السلطان فرج إلى دمشق حيث أخذ في مطاردة نوروز وشيخ اللذان يخشيان من قوة السلطان فرج حتي وصلا إلي اللجون ([٨٧]) ولم تمض ساعات قليلة من بدء المعركة إلا ولحقت الهزيمة بجيش الناصر فرج على عكس ما كان يتوقع ، وقتل عدد كبير من كبار أمرائه ، في حين أتجه الناصر فرج بعد هزيمته إلى دمشق ([٨٨]) .

---

[٨٣]. المقريزي : السلوك ، ح٤ قسم ١ ص١٨٧، ١٩١، أبو المحاسن : النجوم ح١٣ ص ١٢٠ – ١٢١ ، العيني : السيف المهند في سيرة الملك المؤيد ، ص ٢٥٩ ،

٠٨٤ الريدانية: تقع شمال القاهرة، وكان العمران ينتهي إليها لذا أطلق اسم الريدانية على البستان، وعلى ما جاوره من الأراضي الرملية الفضاء التي كانت في ذلك من باب الحسينية حيث ميدان عبده باشا الآن وبين الصحراء التي فيها الآن ميدان روكسي بمصر الجديدة. انظر: محمد الشناوي، منتزهات القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني ،القاهرة، دار الآفاق الجديدة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، ص ٢٣٨-٢٣٩.

٠٨٥ المقريزي : السلوك ، ح٤ قسم ١ ص١٩٩.

٠٨٦ المقريزي : السلوك ، ح٤ قسم ١ ص١٨٨.

٠٨٧ اللجون، . بلد بالأردن ، بينه وبين طبرية عشرون ميلا ، وإلى الرملة أربعون ميلا . انظر : ياقوت : معجم البلدان ح٥ ص ١٣-١٤ .

[٨٨]. أبو المحاسن : النجوم ح١٣ ص١٤٠-١٤١ .

وما أن انتهت المعركة حتي وقع الخلاف بينهما ، فأراد كل منهما أن يكون هو " الأمير الكبير " ، لذلك لم يتفقا على من ستكون له الكلمة العليا . ويتضح لنا ذلك الخلاف عندما أرادا كتابة رسالة إلى أمراء الديار المصرية ليعلموهم حقيقة الحال وهزيمة الناصر فرج ، فرفض كل منهما أن يتنازل للآخر بأن يكتب باسمه ، فأشار عليهما كتاب السر فتح الله ([٨٩]) – وكان بصحبة جيش الناصر الذي خرج لمحاربة نوروز وبعد هزيمة الناصر فرج فضل البقاء بجانب نوروز وشيخ – بأن يكتب كل منهما رسالة باسمه ويرسلها إلى الأمراء بمصر ، بالإضافة إلى أن يكتب الخليفة المستعين هو الآخر رسالة يشرح فيها ما أمسي عليه الحال من هزيمة الناصر فرج . ومما يذكر أن الأمير بن نوروز وشيخ تحفظا على الخليفة العباسي المستعين بالله وبعض القضاء ورفضا السماح لهم بالتوجه إلى دمشق والانضمام إلى جانب الناصر فرج ([٩٠]) .

٧-تقليد الخليفة المستعين للسلطنة:

ولإنقاذ موقفهما السيئ ، استدعيا كاتب السر فتح الله وسألاه المشورة فيما يعملاه ، ويروي المقريزي نقلا عما ذكره له فتح الله كاتب السر ، أن فتح الله قال لهما : " ما هكذا يقاتل السلطان " وذكر لهم ما هم فيه من الافتراق ، وعدم الانقياد إلى واحد منهما وإن كلا منهما يري أنه الأمير الكبير ، وهذا أمر لابد فيه من إقامة واحد ترجع الأمور كلها إليه وتصدر عنه " أقيموا الخليفة يتحدث ، وقوموا معه ، فإن أحداً لا يتجاسر عليه " فأطرق كل منهما ساعة ، ثم رفع رأسه وقال : أين أستاذنا ، فقبل كل من نوروز وشيخ هذه المشورة دون تردد، ما هو حاضرن منا حتي تسلطنه ، فلما رأي عجزهم وانقطاعهم قال : " أقيموا ، فقالا له : " أو يرضي بذلك " قال : " أنا أرضية " وقام

[٨٩]. هو فتح الله بن معتصم بن يس الإسرائيلي الدوادي العناني التبريزي ، رئيس الأطباء وكاتب السر ، ولد بتبريز هام ٧٥٩هـ ، ثم صحبه أباه إلى القاهرة ، فتشابها في كفالة عمه ونظر في الطب ، وتولي رئاسته ثم تولي كتابة السر عام ٨٠١هـ في سلطنة الظاهر برقوق .وكان خيراً ومتواضعاً وحسن وساطة بين الناس وبين السلطان. للمزيد انظر : المقريزي : الخطط ، ح٢ ص ٦٣ .

[٩٠]. السخاوي : الذيل على رفع الإصر أو بغية العلماء والرواة، تحقيق جودة هلال وأخرن،مطبوعات الدار المصرية للتأليف والترجمة(د-ت). ص ٩١ .

عنهما إلي الخليفة فذكر له شيئاً من هذا ، فأبي أن يقبل ، وفرق([٩١]) من الناصر فرقاً شديداً ، وخاف أن لا يتم له هذا الأمر فيهلك ، وصمم على الامتناع ، وفتح الله يلح عليه ، لما دخل قلبه من خوف الناصر والحقد عليه ، فلما رأي أن الخليفة لا يوافقه على القيام بالأمر ، دبر عليه حيلة يقوده بها لما يريد منه ... فلما بلغ الخليفة هذا سقط في يده ، وايس من إصلاح الناصر له وأراد أن يبقي له حيلة مع الأمراء ، يعيش بها حيناً من الدهر في رحيله معهم ... فأذعن لهم أن يقوم بالأمر ، فبايعوا بأجمعهم ، وأطبقوا كلهم على يده ، يعطوه صفقة أيمانهم وحلفوا له على الوفاء بتبعيته ، ونصبوا له كرسياً خارج باب الدار تجاه جامع كريم الدين ([٩٢])، وجلس فوقه وعليه سواده الذي أخذوه من الجامع ... ووقفوا بين يديه علي قدر منازلهم ... ونادي مناد " إلا أن الناصر فرج بن برقوق قد خلع من السلطنة ، فلا يحل لأحد مساعدته ، ومن حضر إلى أمير المؤمنين من جماعته فهو آمن ، وأمدكم إلى يوم الخميس ... فأبتعد الناس عن الناصر .. ومن قائل معه فقد عصي الله ورسوله([٩٣]) .

وهنا نتوقف برهة للناقش الأسباب التي دفعت فتح الله كاتب السر إلى التفكير في تقليد الخليفة العباسي أمور البلاد ، وللأسباب التي من أجلها قبل كل من نوروز وشيخ ولاية الخليفة العباسي لأمور البلاد دون تردد .

---

[٩١]. الفرق، الخوف، وفرق منه بالكسر فرقاً جزع، ابن منظور، لسان العرب ،دار المعارف القاهرة ص ٣٣٩٧.

[٩٢].جامع كريم الدين، صاحبه كريم الدين عبد الكريم هبة الله بن العلم هبة الله بن السديد المصري وكيل السلطان ، أسلم كهلا في أيام السلطان الظاهر بيبرس الجاشنكير ، وكان كاتبه وتمكن من السلطان غاية التمكن بحيث صار الكل إليه وبيده العقد والحل وبلغ من الرتبة مالا مزيد عليه أموالاً عظيمة عاد أكثرها إلي السلطان وكان حسن الخلق عاقلاً خيراً سمحاً داهية وقوراً مرض نوبة فزينت مصر لعافيته وكان يعظم الدينين وله بر وإيثار عمر البيارات وأصلح الطرق وعمر جامع القبيبات وجامع القابون وأوقف عليهما الأوقاف ثم انحرف عنه السلطان ونكبه فنفي إلي القدس ثم إلي أسوان فقتل نفسه عام ٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م. انظر ابن كثير : البداية والنهاية ، تحقيق أحمد أبو ملحم ، على نجيب عطوي ، دار الكتب العلمية بيروت ، ج ١٤ ص ١٢٠، وأبن تغري بردي ، المنهل الصافي ، تحقيق محمد محمد أمين ، سعيد عبد الفتاح عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٤م ،، ج ٧ ص ٣٤٥، ابن العماد ، شذرات الذهب، ج٦ ص ٦٣.

[٩٣]. المقريزي : السلوك ، ح٤ قسم ١ ص٢١٤ – ٢١٧.

لقد أحس فتح الله كاتب السر أن الأمور قاربت على الخروج من يد الأميريين نوروز وشيخ بعد استعادة السلطان الناصر فرج لقوته ، خاصة وأن كلا من نوروز وشيخ مختلفان ، فرأي – فتح الله – الاستعانة بالخليفة العباسي ، وذلك لما يتمتع به الخليفة العباسي من تأثير على مختلف طوائف المجتمع بصفته خليفة المسلمين .

لذلك رأي فتح الله أن يصدر الخليفة فتوي شرعية يعلن فيها خلع السلطان الناصر فرج من السلطنة ويوضح في تلك الفتوى أن الناصر فرج خرج عن الدين ووقع في المحرمات ، وبذلك يضمن خروج كافة الأمراء والجنود على الناصر فرج والانفضاض من حوله نتيجة عدم شرعية حكمه ، وفي نفس الوقت يعلن على الملأ بأن الخليفة المستعين هو صاحب هذا الأمر وحاكم البلاد ، فلا يستطيع أحد الخروج عليه . وفي نفس الوقت يعيد الوئام بين كل من نوروز وشيخ ، بعدم تولية أحدهما فتثار ثائرة الآخر([٩٤]).

وقد قبل كل من نوروز وشيخ هذا الحل ، وذلك حلا مؤقتاً لما ثار بينهما من خلاف حول أيهما سنؤول إليه السلطنة واستراح الاثنان لهذا الحل ، حتى يستطيعا من وراء الخليفة أن يتمما هزيمة الناصر فرج ، ثم يستطيع القوي منهما أن يتخلص من الآخر ويقبض على زمام الأمور فيما بعد ، خاصة وأن الخليفة كان لا يتمتع بقوة عسكرية ضاربة يستطيع بها منازلة أحدهم إذا حاول أن يقصيه عن عرش البلاد. وكتب أمير المؤمنين إلى أمراء مصر ، باجتماع الكلمة على إقامته ، وأنه خلع الناصر ، وقد أبطل المكوس والمظالم " ([٩٥]) .

إذن كانت ولاية الخليفة المستعين للبلاد ولاية مؤقتة ، أراد بها الأمراء المتصارعون أن تكون وسيلة للتخلص نهائيا من السلطان الناصر فرج المتحصن بدمشق ، ثم ستاراً يستطيع من ورائه أحد هؤلاء الأمراء تدبير مؤامراته للانفراد بحم البلاد .

وقد فهم الخليفة المستعين كل هذه الأمور فهماً كاملاً ، خاصة وأنه نشأ وتربي بمصر وشاهد وسمع بالمؤامرات والدسائس التي قام بها الأمراء المماليك للقبض على الأمور ، وعلم علم اليقين أنه من المستحيل أن يترك هؤلاء الأمراء حكم مصر والشام يخرج من

[٩٤]. ابن تغري بردي ، النجوم ، ح ١٣ ص ١٩٣ . السخاوي، الضوء اللامع ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة (د – ت) ج١٠ ص ٢٠٤.
[٩٥]. المقريزي ، السلوك ، ج٤ قسم١ ص ٢١٤ – ٢١٧ .

أيديهم إلى أيدي الخلفاء ، وعلم أيضا أن هذا الإجراء ما هو إلا حيلة للوصول إلى هدف معين هو في النهاية الوصول إلى الحكم . لذلك رفض رفضا قاطعا ما عرضه عليه كاتب السر فتح الله من تولية حكم البلاد . ولكنه أجبر على القبول حينما أوقعوه في خلاف شديد مع السلطان الناصر فرج حتى يقطعوا عليه طريق الرجعة.

وبقبول الخليفة المستعين السلطنة " فرح الأمراء بذلك وبايعوه بأجمعهم ، وقبلوا يده ، وحلفوا له على الطاعة والوفاء بالإيمان المغلظة التي لا يمكن التورية فيها " ووقف معظم الأمراء بين يدي الخليفة العباسي على مراتبهم يؤدون إليه الخدمة وقبلوا بين يديه الأرض كما كانوا يفعلون من قبل مع سلاطين المماليك ([٩٦]) .

ولكن حدث في تلك الأثناء أن وصلت جموع التركمان نجدة للسلطان الناصر ، مما قوي من شأنه ، وأوقع في قلوب نوروز وشيخ وبقية الأمراء ، مما دفعهم إلي الاجتماع وإعادة تقرير ولاية الخليفة عليهم حتى يقفوا جميعاً موقفا واحداً من وراء هذا الخليفة ، وتشجيعا للخليفة وحثه على الثبات " حلفوا بأجمعهم يمينا مغلظاً لأمير المؤمنين بأنهم يلزمون طاعته ، ويأتمرون بأمره ، وأنهم رضوا بأنه الحاكم عليهم ، وأنه يستبد بالأمور من غير مراجعة أحد ، وأنهم لا يسلطنون أحداً غيره طول حياته " ([٩٧]) ومن القسم السابق يبدو لنا أن الخليفة بدأ يتراجع في موقفه نتيجة علمه اليقين أن هؤلاء الأمراء لم يختاروه حاكما عليهم إلا لفترة مؤقتة وحتى تهدأ الأمور ثم يقومون بعزله وتنصيب الأمير القوي ، لذلك أقسموا له بأنهم " لا يسلطنون أحداً غيره طول حياته " تطميناً له .

ولم يكن أمام الخليفة للمستعين إلا طاعة هؤلاء الأمراء ، ومن ثم قبل هذه الوظيفة المؤقتة .

[٩٦] . المقريزي ، السلوك ، ج٤ قسم١ ص٢١٦،ابن تغري بردي : النجوم ح١٣ ص ١٨٧ – ١٩٠ ، من الجدير بالذكر أن بعض المؤرخين عدد المستعين من جملة السلاطين بالديار المصرية والبعض الآخر عدة من جملة الخلفاء أنظر : ابن إياس : بدائع الزهور ، ح١ ص ٣٥٧ .

[٩٧] . المقريزي ، السلوك ، ج٤ قسم١ ص٢١٦،ابن تغري بردي، النجوم ، ج١٣ ، ص١٩٣.

وأشار الأمراء على الخليفة المستعين بأن يكتب إلى أهل الديار المصرية بخبرهم بخلع السلطان الناصر فرج وخروجه على الدين ويعلمهم بنبأ توليته عرش البلاد ([٩٨]) ، كما ضمن كتابه إزالة المكوس والمظالم من سائر الأعمال([٩٩]) ، كما أشاروا أيضاً بأن يكتب الخليفة والقضاة محضراً يحكمون بمقتضاه بإراقة دم السلطان الناصر فرج لكونه خارجاً عن الدين([١٠٠]) .

ونتج عن ذلك أن انفصل عن السلطان الناصر فرج عدد كبير من أمرائه وأتباعه ، مما أدي إلى ضعف موقفه ، بينما اشتد نوروز وشيخ في محاصرة دمشق ، الأمر الذي دفع السلطان الناصر إلى الالتجاء إلى قلعة دمشق والتحصن بها ، فما كان من نوروز وشيخ إلا أن شدداً الحصار على قلعة دمشق ، وفي تلك الأثناء تسرب معظم جنود وأمراء الناصر فرج وانضموا إلى جانب الخليفة المستعين ونوروز وشيخ ([١٠١]) وأخيرا اضطر الناصر فرج إلى النزول من قلعة دمشق وتسليم نفسه إلى الأمير شيخ فاجتمع الخليفة بالأمراء والفقهاء والعلماء المصريين والشاميين وقرروا جميعا إراقة دم الملك الناصر فرج ، ونفذ حكم الإعداد في شخص الناصر فرج في ليلة السبت السادس عشر من صفر عام ٨١٥هـ/١٤١٢م([١٠٢]) ، على الرغم من معارضة الأمير شيخ في قتل الناصر فرج .ويبدو أن السبب الذي دفع شيخ في معارضة سفك دم الناصر فرج هو أنه أراد استغلاله فيما بعد لتهديد نوروز إذا حاول الانفراد بالحكم .

---

[٩٨]. ذكر القلقشندى نص رسالة أرسلها أمراء الديار المصرية إلى الخليفة المستعين بعد هزيمة الناصر فرج ، رداً على رسالة الخليفة المستعين لهم . انظر نص هذه الرسالة في كتاب صبح الأعشى ج٨ص ٣٧٩ – ٣٨٠ .

[٩٩]. وقد أصدر الخليفة المستعين قراراً بعزل جلال الدين البلقيني عن قضاء الشافعية وذلاك لأن البلقيني كان في صحبة الناصر فرج ومقيم معه بدمشق وقد أثر البلقيني هذا العزل ، وبعد أن تصافي مع المؤيد شيخ عمل جاهداً على الإطاحة . بخلافة المستعين . انظر : المقريزي ، السلوك ، ج٤ قسم١ ص٢١٦- ٢١٧،ابن تغري بردي: النجوم ج١٣ ص ٩٢.

[١٠٠]. أبو المحاسن : النجوم ج١٣ ص ١٩٣ ، ١٩٨، السيوطي : حسن المحاضرة ، ج٢ ص٧٤ .

[١٠١]. ساعد على ذلك الأمان الذي أصدره الخليفة المستعين لكل الموالين الناصر فرج وهو " من حضر إلى أمير المؤمنين خليفة سيد المرسلين فهو آمن " انظر المقريزي ، السلوك ، ج٤ قسم١ ص٢١٦،حسن المحاضرة ج٢ ص ٨٦ .

[١٠٢]. السيوطي : حسن المحاضرة ، ج٢ ص٧٤ .

وإذا كان الخوف من السلطان الناصر فرج هو الذي دفع كبار الأمراء ومن بينهم نوروز وشيخ إلى المناداة بسلطنة الخليفة المستعين ، فإن التخلص من السلطان الناصر على النحو السابق أزال ذلك الخوف ، ولكن الأمور لم تهدأ بعد ، إذ ظل الخلاف بين كل من نوروز وشيخ قائما ، فكل منهما بريد أن ينتهز الفرصة للانقضاض على السلطنة " والناس يترقبون وقوع الفتنه ونتيجة تخوف الأمراء من بعضهم البعض أبقي على وجود الخليفة العباسي بالسلطنة وافق كل من نوروز وشيخ على أن يسيرا إلى مصر صحبة الخليفة المستعين بالله ويكونا في خدمته ، فيكون الأمير شيخ أميراً كبيراً ويشغل وظيفة أتابك العسكر بالديار المصرية ، وبتولي نوروز رأس نوبة الأمراء ، على أن يكون القطاع كل منهما بالتساوي .

وأثناء وجود الخليفة بدمشق بعد التخلص من السلطان الناصر فرج كان نوروز وشيخ يجلسان إلى جواره ، فيجلس شيخ عن يمينه بينما يجلس نوروز عن يساره ([١٠٣]).

وأخيراً اتفق الأميران الكبيران – نوروز وشيخ – علي أن يستقر نوروز بالشام وفوض له الخليفة المستعين " كفالة الشام جميعه : دمشق وحلب وطرابلس وحماه وصفد وغزه ، وجعل له أن يعين الأمراء والاقطاعات لمن يريد ، وأن يولي نواب القلاع الشامية والسواحل وغيرها لمن أراد من غير مراجعة في ذلك ، غير أنه يطالع الخليفة بمن يستقر به في شئ من ذلك ليجهز إليه تشريفاً "([١٠٤]) وهكذا خرج حكم بلاد الشام عن يد الخليفة " السلطان " المستعين ، وأصبح في يد نوروز . ولم يعد للخليفة أي حق سوي تشريفه بمنح الخلع الشريفة والتقاليد لمن يختاره ويقره نوروز في حكم مختلف بلاد وقري الشام . في حين استقر الرأي على أن يتوجه الأمير شيخ إلى مصر صحبة الخليفة ، ويكون أتابك العساكر بها ([١٠٥]) .

وأخذ الخليفة والأمير شيخ وبقية الأمراء والجنود في الاستعداد للعودة إلى الديار المصرية ، وأرسل إلى أهل الديار المصرية يعلمهم بقرب وصوله .

---

١٠٣. المقريزي ، السلوك ، ج٤ قسم١ ص٢٢٩.ابن تغري بردي : النجوم ج١٣ ص ١٩١.
١٠٤. المقريزي ، السلوك ، ج٤ قسم١ ص٢٢٩ -٢٣٤.
١٠٥. ابن تغري بردي : النجوم ج١٣ ص ٢٠٠– ٢٠١ .

وبدا الخليفة وكأنه الحاكم الفعلي للبلاد في تلك الفترة ، إذ أخذت رسائله وكتبه تخرج وفي مقدمتها هذه العبارة : من عبد الله ووليه الإمام المستعين بالله ، وخليفة رب العالمين ، وابن عم سيد المرسلين ، المفترض طاعته على الخلق أجمعين ، أعز الله ببقائه الدين إلي فلان... " ([١٠٦]) كما ضربت السكة باسمه وحده ، ودعي له بمفرده على المنابر ، كما كانت علامته سارية على التقليد والتوقيع والمكاتبات ([١٠٧]) .

وفي يوم السبت الثامن عشر من شهر ربيع الأول عام ٨١٥هـ (١٤١٢م) بدأ الخليفة والأمير شيخ وبقية الأمراء والجند في المسير جنوبا تجاه مصر.

ومن الجدير بالذكر أن أهل الديار المصرية فرحوا فرحاً زائداً بتولية الخليفة المستعين حكم الديار المصرية ، ظنا منهم أنهم بذلك قد تخلصوا نهائيا من حكم المماليك بحرية كانوا أم جراكسة ، وخرجوا جميعا لاستقبال الخليفة المستعين ، وتلقاه " الناس " بقطيا والصالحية وبلبيس " ومضوا إلي القلعة وقد زينت الشوارع ، فنزل الخليفة بالقصر من قلعة الجبل([١٠٨]) وحصل للناس من الفرح بذلك مالا مزيد عليه " ، كما كتبت عدة قصائد في مدح المستعين والخلفاء منها ([١٠٩]) .

٧-العلاقة بين الخليفة المستعين والأمير شيخ :

ولما استقر أمير المؤمنين المستعين بالله بقصره بالقاهرة ٨١٥هـ /١٤١٢م أقدم إليه الأمير شيخ ومعه الأمراء ورجال الدولة ، فخلع الخليفة على الأمير شيخ خلعه بطراز عظيمة القيمة ، وفوض إليه الحكم بالديار المصرية ، كما سمح له أن يولي ويعزل دون أن يراجعه أو يشاوره في ذلك ([١١٠]) ويبدو أن الأمير شيخ كان يتوقع أن الخليفة لن يذهب إلى القصر وإنما سيتوجه إلى داره بالقرب من المشهد النفيسي.

---

١٠٦. المقريزي السلوك ج٤ ق ١ ص ٢٣٠ – ٢٣١ ، أبو المحاسن : النجوم ج١٣ ص ٢٠١ . السيوطي : حسن المحاضرة ج٢ ص ٧٥ .

١٠٧. وهذا على العكس من حال وسلطات الخليفة المستعين قبل توليه السلطنة ، إذ كان مفقود السلطة مثله مثل من سبقه من الخلفاء ليس له سوي العهد إلى السلطان بالحكم والدعاء له على المنابر قبل السلطان . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ج٣ ص ٢٦٣ .

١٠٨. المقريزي السلوك ج٤ ق ١ ص٢٣٢.

١٠٩. السيوطي : حسن المحاضرة : ج٢ ص ٨٦ .

١١٠.ابن تغري بردي : النجوم ج١٣ ص ٢٠٧ . السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج٢ ص ٧٧ .

لذلك أمر الأمير شيخ كافة الأمراء وأرباب الدولة بألا يصعدوا إلى الخليفة وإنما يترددوا على باب السلسلة حيث كان يقيم الأمير شيخ ، وأبطل المواكب السلطانية التي كانت تقام عادة للسلاطين ، وقبض على الأمراء الذين شك في إخلاصهم له ، وأخذ في التضييق على الخليفة المستعين ومنعه من مباشرة مهامه في التولية والعزل ، ومارس على الخليفة نوعا من الضغط من أجل تقليده جميع أمور البلاد المصرية ، وأخيراً وبعد أن خشي الخليفة المستعين من غدر الأمير شيخ ، رضخ لكل مطالبة ، وفي الموكب الكبير الذي عقد بالقصر السلطاني وحضره الأمير شيخ وسائر الأمراء " خلع الخليفة على الأمير شيخ باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية ([١١١]) .

وبمقتضي هذا التقليد الذي منحه الخليفة للأمير شيخ ، خرج الحكم عن يد الخليفة إلى يد الأمير شيخ ، الذي أخذ يمارس سلطاته وتلقب بلقب " نظام الملك "(١١٢) إضافة إلى ذلك يقول المقريزي : " وفيه خلع الأمير شيخ على دوا دارة الأمير جقمق ، واستقر به دوادار الخليفة ، واسكنه بقلعة الجبل ، حتى لا يتمكن الخليفة من العلامة على شيء ما لم يكن على يد جقمق ، ولا يقدر أحد على الاجتماع به إلا وهو معه فاستوحش الخليفة (من ذلك)لانفراده بعياله في تلك القصور الواسعة وضاق صدره وكثر فكره" (١١٣) .

وقد ساعده على ذلك فتح الله كاتب السر الذي قال في فجلس القضاة الأربعة وسائر الأمراء وكبار رجال الدولة " إن الأحوال مضطربة ولم يعهد أهل مصر خليفة يتقلد السلطنة ، وأن الأمور لن تستقر إلا بتولية سلطان وفقاً للنظام الذي ساد في تلك البلاد ، ثم دعاهم إلى تنصيب الأمير شيخ فقال الأمير : " هذا أمر لا يتم إلا برضي أهل الحل والعقد " فقال الأمراء " نحن راضون بالأمير الكبير . ثم مد القضاة جلال الدين عبد الرحمن بن البلقيني يده وبايعه وحذا حذوه سائر الأمر والقضاة ([١١٤]) .

---

[١١١]. ابن تغري بردي : النجوم ج١٣ ص ٢٠٧.
[١١٢]. السيوطي : حسن المحاضرة ، ح٢ ص ٧٧ ، العيني: السيف المهند ص ٣٠٣ .
[١١٣]. المقريزي ، السلوك ، ج٤ ص قسم ١ ص ٢٣٤ .
[١١٤]. المقريزي ، السلوك ، ج٤ قسم ص ٢٤٤.

وعلى هذا النحو قبض الأمير شيخ على كافة الأمور وصار للخليفة على رأي جمال الدين أبي المحاسن " الاسم في السلطنة لا غير ، وما عدا ذلك متعلق بالأمير شيخ ([١١٥]) .

٨-خلع الخليفة المستعين من السلطنة :

خلع الخليفة المستعين بالله العباسي من السلطنة " في يوم الاثنين أول شعبان عام ٨١٥هـ " ([١١٦]) .ومن الجدير بالذكر أن فتح الله كاتب السر هذا ، كان هو صاحب فكرة سلطنة الخليفة للمستعين ([١١٧]) .

وعندما صعد الأمراء إلى الخليفة ليعلموه صورة الحال ويأخذوا موافقته على بيعة السلطان شيخ الذي تلقب بالمؤيد ثم اشترط أن يؤذن له في النزول من القلعة إلى دارة ، وأن يحلف له السلطان بأن يناصحه سراً وجهراً ، ويكون سلما لمن سالمه ، حرباً لمن حاربه ، فعاد القضاة إلى السلطان ، وردوا الخبر عليه ، وحسنوا عبارة الرد ، فأجاب ليمهل علينا أياماً ، فإن الآن لا يمكن نزوله إلى بيته " فنزلوا إلى دورهم وكانت مدة إقامة الخليفة حاكماً سبعة أشهر وخمسة أيام" (١١٨)،

ثم قرر السلطان المؤيد شيخ بعد ذلك خلع الخليفة المستعين من الخلافة وولي مكانه أخاه داود الذي تلقب بالمعتضد ([١١٩]) .

وهكذا تنتهي علاقة الخليفة بالمؤيد شيخ، الذي اتخذ من الخليفة ستاراً يخفي وراءه نواياه الحقيقية في الوصول إلى مراكز الحكم والسلطان .

---

[١١٥] . أبو المحاسن : النجوم ح١٣ ص ٢٠٦ . ويشير ابن إياس إلى أن الخليفة المستعين كان في مدة سلطنته مع الأتابكي شيخ في غاية الضنك ليس له في السلطنة غير مجرد الاسم فقط والأمر كله للاتابكي شيخ . بدائع الزهور ح١ص ٣٥٨ .

[١١٦] - المقريزي : الخطط ح٢ ص ٦٢. ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ح١٣ ص ٢٠٦ – ٢٠٧ ، ابن إياس : بدائع لزهور ، ح٢ ص ٣ .

[١١٧] - العيني : السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، ص ٣١١ .

[١١٨] . المقريزي ، السلوك ، ج٤ قسم ١ ص ٢٤٤ .

[١١٩] . المقريزي : السلوك ح٤ ق١ ص ٢٤٤ ، ٢٧٣ ، العيني : السيف المهند ض ٣٢١ .

٩-القائم بأمر الله والمماليك :

وتولي بعد ذلك أبو البقاء حمزة بن محمد وسمي بالقائم بأمر الله عام ٨٤٥هـ / ١٤٤١م أثناء سلطة جقمق يقول عنه السيوطي " وعنده جبروت بخلاف سائر إخوته ، سهماً صارماً " ([١٢٠]) لذلك حدثته نفسه بالسلطة عندما رأي ثورات المماليك وانقلابهم على أسيادهم ، لذلك وجد الخليفة الفرصة متاحة للوثوب على السلطة إلا أن السلطان إينال حجم من دورة بقوله " غيب في بيتك حتى تسكن هذه الفتنة "([١٢١]) إلا أن الخليفة لم يهدا له بال ويريد استغلال الموقف لصالحه لذلك لم يغيب في بيته ، فتوجه إليه المماليك وقبضوا عليه وأتو به إلى البيت الكبير خوفاً عليه القتال ([١٢٢]) .

وكان الخليفة يظن أن هذه الحركة سوف تعود عليه بالخير الوفير ، كما حصل له من قبل عندما خلع الملك المنصور أبي السعادات بن جقمق عام ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م وأنعم عليه السلطان إينال بإقطاع يقول أبن إياس " .. وأنعم على الخليفة حمزة بإقطاع ثقيل ومال وخلع وخيول وغير ذلك " ([١٢٣]) وظن الخليفة إن هذه الحركة مثل الأولي عندما شارك في الثورة وأمر بحرق سبيل المؤمني حتى أخذوا الميدان ([١٢٤]) إلا أن الأمر جاء بخلاف ذلك حيث أقرة السلطان إينال بيته وعندما رفض أرغموه على السكني بالبيت الكبير ، وعندما هدئت ثورة المماليك طلبة السلطان إينال ، وعندما حضر بين يديه وبخه بالكلام ولم ينطق بالجواب ، وأمسك لسانه عن الرد ، فأمر السلطان بترحيله إلى سجن الإسكندرية واستمر بها إلى أن مات عام ٨٥٩هـ /١٤٥٤م ([١٢٥]) .

---

[١٢٠]. ابن تغري بردي : النجوم ج١٥ ص ٤٣٢ . السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٥٩٥ ، حسن المحاضرة ، ج٢ ص ٧٩ .

[١٢١]. أبن إياس ، بائع الزهور ن ج٢ ص ٣٢٦ .

[١٢٢]. أبن إياس ، بدائع الزهور ، ج٢ ص ٣٢٦ .

[١٢٣].ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٢ ص ٣٠٧ ، ٣٢٧ .

[١٢٤]. ابن إياس ، بدائع الزهور ، ص ٣٢٧ .

[١٢٥]. ابن تغري بردي : النجوم ج١٦ ص ١٩٤. ابن إياس ،بدائع الزهور ، ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج٢ ص ٨٠ ، تاريخ الخلفاء ، ص ٥٨٥ ، إيلي منيف شهلة، الأيام الأخيرة في حياة الخلفاء، دار الكتاب العربي،دمشق،١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص ١٦٦ .

تولي بعدة أبو المحاسن يوسف بن محمد وسمي بالمستنجد بالله وقال عنه السيوطي " استمر المستنجد في الخلافة ساكنا بمنزل إخوته إلى أن تولي الظاهر خشقدم فدعاه إلى أن يسكن عنده في القلعة واستمر ساكنا بها إلى أن مات "([١٢٦]) ومن خلال شهادة السيوطي نجده لا يقحم نفسه في أمور الدولة لذلك أنعم عليه السلطان بلباي المؤيدي بن السلطان إينال وأسكنه القلعة واستمر بها إلى أن مات عكس الخلفاء السابقين عليه لذلك يقول عنه ابن إياس " عنده لين مع تواضع زائد " ([١٢٧]) .

ولم يتطلع لاستغلال الموقف كمن سبقه من الخلفاء ، بل رضي أن يقوم بتهنئة السلطان بالشهر على العادة ([١٢٨]) إلي أن مات ٩٠٣هـ / ١٤٧٩م ، وتولي يعقوب بن عبد العزيز وسمي المستمسك وأيده السلطان الغوري ([١٢٩]) وعرف عنه بالصلاح([١٣٠]) إلا أنه تنازل عنها عندما اصطدم بعمه خليل ، وولي ابنه محمد بن يعقوب وسمي بالمتوكل على الله ، ثم أن السلطان الغوري قام بمراضاة محمد بن يعقوب وعمه خليل بإلباسهم سلاري صوف أبيض بمسمور والبس والديه أيضا سرابين بسنجاب ([١٣١]) ، ودخلت الدولة المملوكية في أزمة اقتصادية حادة اضطر السلطان الغوري لفرض الكثير من الضرائب ومصادرة بعض الأموال لتدعيم جيشه لمواجهة التهديد البرتغالي في البحر الأحمر يقول ابن إياس " وصادر حتى أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب وأخذ منه مالاً " ([١٣٢]) ولم يمانع الخليفة هذه المصادرات نظراً لما فيه الدولة المملوكية من مشاكل داخلية وخارجية ، نظراً لما عرف عن الخليفة بالفضل والخير([١٣٣]).

---

[١٢٦]. السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج٢ ص ٨٠ ، تاريخ الخلفاء ، ص٥٩٧ ، إيلي منيف شهلة ، مرجع سابق ،ص ١٦٧

[١٢٧]. ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٣ ص ١٥١ .

[١٢٨]. علي بن داود الجوهري الصيرفي ، إنباء الهصر بأنباء العصر ، تحقيق حسن حبشي ، الهيئة المصرية العامة القاهرة ، ٢٠٠٢م ، ص ٤٨٧ – ٥١٨ .

[١٢٩]. ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق مصطفي زيادة ، القاهرة ١٩٦١م، قسم ١ ص ٤١٩٨ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

١٣٠. السخاوي، الضوء اللامع ، ج ١٠ ص ٢٤٨.

[١٣١]. ابن إياس ، بدائع الزهور ، ص ١٤٠ .

[١٣٢]. ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٥ ص ٩٠ – ٩١ .

٠١٣٣ السخاوي، الضوء اللامع ،ج ١٠ ص ٨٦.

الخاتمة

استفادت مصر وسلاطينها المماليك من وجود الخلافة العباسية بها حيث أحب السلطان بيبرس أن يكون هو الزعيم الطموح الذي يعيد الحياة إلى هذه الخلافة ، كما أنه أراد تحقيق عدة أهداف مثل: أن يكون له وللسلطنة المملوكية سنداً روحي يجعلها مهيبة الجانب.كما أراد أن يحيط عرشه بسياج من الحماية الروحية يقيه خطر الطامعين في مصر من أمراء الشام، ويبعد عنه كيد منافسيه من أمراء المماليك في مصر الذين اعتادوا الوصول إلى الحكم عن طريق تدبير المؤامرات كما أراد أن يظهر أمام العالم الإسلامي بمظهر الحامي للخلافة وأن تنظر إليه الشعوب الإسلامية نظرة حامي الإسلام.

إن وجود الخليفة العباسي في مصر يضفي على سلطت المماليك مكانة أعلى من مكانة الأمراء والملوك في البلاد الإسلامية الأخرى، بالإضافة إلى أن هؤلاء لا يمكنهم التلقيب بلقب "سلطان" لأن هذا اللقب منح لبيبرس من الخليفة الذي يعتبر مصدر السلطات في العالم الإسلامي كله.فقام الخليفة العباسي بدوره، فقلد الظاهر بيبرس البلاد الإسلامية وما يضاف إليها، وما سيفتتحه الله على يديه من بلاد الكفار، وألبسه خلعة السلطة إلا أنه قيد صلاحيات الخليفة ، ولم يترك له فرصة للظهور أو تأكيد نفوذه على حساب السلطنة المملوكية، فاقتصرت صلاحياته على مجرد ذكر أسمه في الخطبة، وسك أسمه على العملة وكان للخليفة الدور الفعال في شد أزر المقاتلين بحثهم على الجهاد ،

أما الخليفة المتوكل على الله فكانت حياته سلسلة متتابعة من العزل والحبس .حيث بدت في عهد الخليفة المتوكل رغبة من بعض أمراء مصر في الرجوع بالخلافة إلى عهدها الأول . وكان النزاع على السلطة في مصر هو الذي أوحى إليهم بإبراز هذه الفكرة إلى حيز التنفيذ.

ولم يكن الخليفة المتوكل زاهداً في السلطنة ، بل كان يتحين الفرص لإحياء مجد الخلافة القديم . فلما حسن له بعض رجال الدولة طلب الملك بعد التقلص نفوذ سلاطين أسرة قلاوون وتقلد برقوق عرش السلطنة ، راسل الأمراء والعربان بمصر والشام والعراق ، وبث الدعاة في

البلاد الإسلامية ليحببوا إلى رعاياها الدخول في طاعته واغتيال السلطان وتنصيبه سلطاناً وخليفة بدلا منه.

جعل الأمراء من الخليفة المستعين للبلاد ولاية مؤقتة ، أن تكون وسيلة للتخلص نهائيا من السلطان الناصر فرج المتحصن بدمشق ، ثم ستاراً يستطيع من ورائه أحد هؤلاء الأمراء تدبير مؤامراته للانفراد بحم البلاد .

ولما علم الخليفة علم اليقين أن هؤلاء الأمراء حكم مصر والشام متصارعين علي السلطة ، وعلم أيضا أن هذا الإجراء ما هو إلا حيلة للوصول إلى هدف معين هو في النهاية الوصول إلى الحكم . لذلك رفض رفضا قاطعا ما عرضه عليه كاتب السر فتح الله من تولية حكم البلاد . ولكنه أجبر على القبول حينما أوقعوه في خلاف شديد مع السلطان الناصر فرج حتى يقطعوا عليه طريق الرجعة.

ولكن حدث في تلك الأثناء أن وصلت جموع التركمان نجدة للسلطان الناصر ، مما قوي من شأن السلطان ، وأوقع في قلوب نوروز والمؤيد شيخ وبقية الأمراء ، مما دفعهم إلي الاجتماع وإعادة تقرير ولاية الخليفة عليهم حتى يقفوا جميعاً موقفا واحداً وراء هذا الخليفة ، وتشجيعا للخليفة وحثه على الثبات، إلا أن الخليفة بدأ يتراجع في موقفه نتيجة علمه اليقين أن هؤلاء الأمراء لم يختاروه حاكما عليهم إلا لفترة مؤقتة، وحتى تهدأ الأمور ثم يقومون بعزله وتنصيب الأمير القوي ، ولم يكن أمام الخليفة للمستعين إلا طاعة هؤلاء الأمراء ، ومن ثم قبل هذه الوظيفة المؤقتة .

المصادر والمراجع

أولاً:المصادر.

١-أبن إياس: ،محمد بن أحمد (ت٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م)

– بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة القاهرة ١٩٨٠م.

٢-ابن أيبك الدواداري،أبو بكر بن عبد الله(٧٣٦هـ/١٣٣٥م)

كنز الدرر وجامع الغرر، الدرر الفاخر في سيرة الملك الناصر، تحقيق هانس روبرت رويمر، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م،

٣- ابن الأثير ، ابن الأثير : عز الدين بن أبي الحسن بن أبي المكرم (ت٦٣٠ هـ/١٢٣٣م)

الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت لبنان ١٩٦٨م.

٤-البلاذرى،أحمد بن يحي(٢٧٩هـ/٨٩٢م)

فتوح البلدان،عبد الله أنيس الطباع، عمر أنيس الطباع، بيروت ١٩٥٨م

٥-ابن تغري بردي ، جمال الدين أبو المحاسن (ت: ٨٧٤هـ/١٤٧٠م).

– النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، قدم له محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .ونسخة أخري.ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة بدون تاريخ،

– النهل الصافي المستوفي بعد الوافي ، تحقيق محمد محمد أمين ، نبيل محمد عبد العزيز ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٦م.

٦-الجزيري ، عبد القادر بن محمد (ت٩٧٧هـ/ ١٥٦٨م)

– الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م

٧-ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي العسقلاني(ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م)

– أنباء القمر بأنباء العمر ، تحقيق حسن حبشي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

القاهرة، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م
– الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، دار الجيل بيروت ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .
٨–الخالدي، بهاء الدين محمد بن لطف الله(٨٤١هـ/١٤٣٨م)
الثغر الباسم في صناعة الكاتب والكاتم المعروف المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشا، تحقيق أشرف محمد أنس، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م،،
٩–الديار بكري،حسين بن محمد (٩٦٦هـ/١٥٥٨م)
– تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ، القاهرة ١٨٢٣م
١٠–ابن رسته،أبو علي أحمد بن عمر(٣٥٨هـ/٩٦٨م)
الأعلاق النفيسة، ليدن ١٨٩١م .
١١–السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن محمد المصري(ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م)
– الضوء اللامع ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة (د – ت) .
– الذيل على رفع الإصر أو بغية العلماء والرواة، تحقيق جودة هلال وأخرن،مطبوعات الدار المصرية للتأليف والترجمة(د–ت).
١٢–السيوطي، عبد الرحمن أبي بكر جلال الدين(ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م)
– حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٨م،
– تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٨م،
١٣–أبوشامة:أبي محمد عبد الرحمن إسماعيل المقدسي(ت٦٦٥هـ/١٢٦٦م)
– الذيل على الروضتين،بيروت ، دار الجيل،١٩٧٤م.
١٤–الصيرفي ، علي بن داود بن إبراهيم الخطيب الجوهري(٩٠٠هـ/١٤٩٥م)
– إنباء الهصر بأنباء العصر ، تحقيق حسن حبشي ، الهيئة المصرية العامة القاهرة ، ٢٠٠٢م.
– نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٧٠م ،
١٥–ابن طولون، شمس الدين محمد الدمشقي (ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م)

مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق مصطفي زيادة ، القاهرة ١٩٦١م.

١٦-ابن العماد الحنبلي، أبي الفلاح عبد الحي ابن عماد(ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار إحياء التراث العربي بيروت(د - ت)

١٧-العيني:بدر الدين محمود بن أحمد(٨٥٥هـ/١٤٥١م)

- السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، تحقيق فهيم شلتوت، وراجعه محمد مصطفي زيادة، القاهرة ١٩٦٧م.

- عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩م.

١٨-أبن العبري:أبو الفرج جمال الدين جريجوريوس بن هارون المالطي(٦٨٥هـ/١٢٨٦م)

- تاريخ الزمان ،نقله إلي العربية الأب إسحاق الرملة،وقدم له الأب جان موريس فييه، بيروت ١٩٨٦م.

١٩-أبن عبدالظاهر،محي الدين أبو الفضل عبد الله بن نشوان السعدي المصري(٦٩٢هـ/١٢٩٢م)

الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبدالعزيز الخويطر، طبع الرياض.

٢٠-ابن أبي الفضائل "أبو محمد المفضل" (٦٧٢هـ/١٢٧٣م)

النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد،بلوشيه باريس ١٩١١م.

٢١-أبو الفداء:الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي صاحب حماة(٧٣٢هـ/١٣٣٢م)

- المختصر في أخبار البشر،مطبوعات المطبعة الحسينية القاهرة ١٣٢٥هـ.

٢٢-القلقشندى ، أحمد بن علي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)

صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٧٣م.

٢٣-أبن كثير: عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)

- البداية والنهاية ،مكتبة المعارف بيروت ١٩٨٣م،

٢٤-المقريزي: تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٨٧م

– السلوك لمعرفة دول الملوك،تحقيق محمد مصطفي زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٣٤م.
٢٥–المنصوري ،ركن الدين بيبرس(٧٢٥هـ/١٣٢٤م)
التحفه المملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٨٧م.
٢٦– النويري،أحمد بن عبد الوهاب(٧٣٢هـ/١٣٣١م)
– نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق محمد ضياء الدين الريس، الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٦٣ م.ونسخة أخري. نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق نجيب مصطفي فواز ، حكمت كشلي فواز ، دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠٤م ، ١٤٢٤هـ
٢٧–أبن منظور جمال الدين محمد بن مكرم بن علي (ت٧١١هـ/١٣١١م)
– لسان العرب، طبعة مصورة عن طبعة بولاق معها تصويبات وفهارس، المؤسسة المصرية للنشر ٢٠٠٢م.ونسخة أخري طبع دار المعارف القاهرة.
٢٨–ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م)
– معجم البلدان ، دار صادر بيروت (د .ت) .
٢٩–اليوسفي،مرسي بن محمد بن يحي(٥٧٩هـ/١٣٥٨م)
– نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق أحمد حطيط، عالم الكتب بيروت لبنان، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م

المراجع:

١-أحمد مختار العبادي:
قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة بيروت ١٩٦٩م.
٢- إيلي منيف شهلة،
الأيام الأخيرة في حياة الخلفاء، دار الكتاب العربي،دمشق،١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص ١٦٦
٣-جورج يانج:
تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل ، ترجمة علي أحمد شكري، دار النهضة .
٤-حامد زيان غانم:
صفحة من تاريخ الخلافة العباسية في ظل دولة المماليك نشر الدار الأهلية للنشر والتوزيع(د-ت)،
٥- حياة ناصر الحجي:
العلاقة بين دولة المماليك ودولة مغول القبجاق في الفترة بين (٧٤١.٦٥٨هـ /١٣٤١.١٢٦٠م) ، حوليات كلية الآداب ، جامعة الكويت ، الحولية الثانية ١٩٨١م.
٦-حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشريف.
العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي القاهرة ١٩٨٢م .
٧-حكمت فرحات وآخرون :
مختصر التاريخ الإسلامي (د-ت)
٨-خاشع المعاضيدي وسوادي عبد محمد ودرير عبدالقادر نوري:
الوطن العربي والغزو الصليبي، مطابع جامعة الموصل.
٩-زين العابدين شمس الدين نجم .
- معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية ، القاهرة ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
١٠-السيد الباز العريني:
المغول ، دار النهضة العربية ، ط ٢، ١٩٨٦م.
١١- سعيد عبدالفتاح عاشور ،
- العصر المماليكي في مصر والشام ، دار النهضة العربية بيروت ،١٩٦٨م.
- مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، القاهرة ١٩٧٠م.

١٢-عثمان علي محمد عطا،
الأزمات الاقتصادية في العصر المملوكي وأثرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة٢٠٠٢م
١٣-علي إبراهيم حسن:
تاريخ المماليك البحرية ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة، ١٩٦٧م.
١٤-فؤاد عبدالمعطي الصياد،
المغول في التاريخ، دار النهضة العربية ١٩٨٠م.
الشرق الإسلامي في عهد الإيلخانيين -. أسرة هولاكو خان مركز الوثائق ، الكويت ٩٨٧١م.
١٥-محمد الشناوي،
منتزهات القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني ،القاهرة، دار الآفان الجديدة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
١٦-مصطفي عبد الكريم الخطيب ،
معجم المصطلحات والألقاب التاريخية مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٦هـ /١٩٩٦م.
١٧-محمد سهيل طقوش،
تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس بيروت (د-ت)،
١٨-محمد عدنان البخيت ،
مملكة الكرك في العهد المملوكي ، المعهد الدبلوماسي الأردني ، الأردن ١٩٩٨م.
١٩-منير الزيب،
معجم أسماء المدن والقرى في بلاد الشام الجنوبية، دار العراب للدراسات والنشر والترجمة، دمشق سوريا، ٢٠١١م.
٢٠-وليم موير :
تاريخ دولة المماليك في مصر ، ترجمة محمود عابدين، سليم حسن ، نشر مكتبة مدبولي ١٩٩٥م.